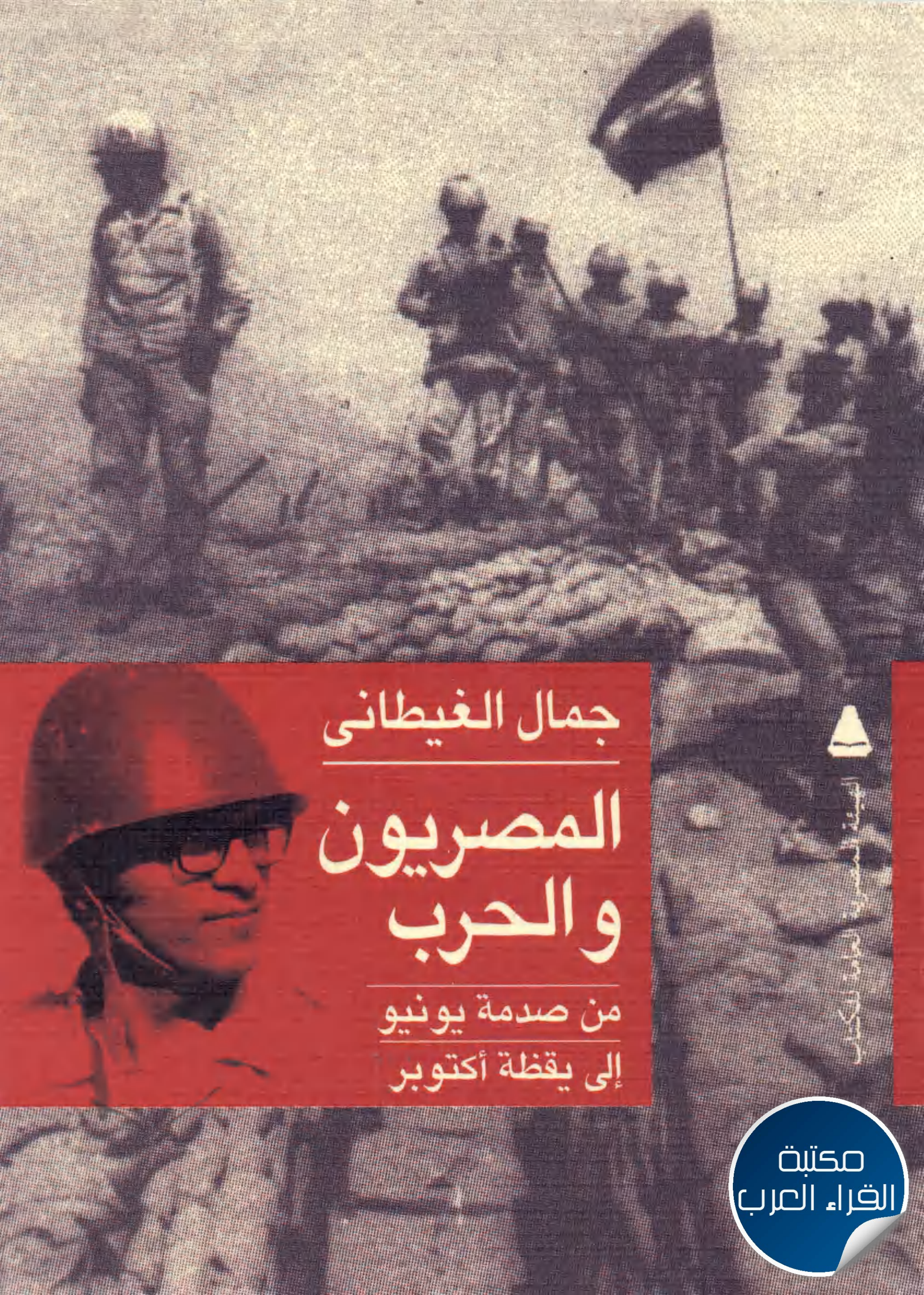

جمال الغيطانى
المصريون والحرب
من صدمة يونيو
إلى يقظة أكتوبر



ست سنوات قضاها الروائي جمال الغيطاني على الجبهة المصرية، مراسلاً حربياً لمؤسسة «أخبار اليوم»، كان يواجه الموت كل ساعة. حكايات الغيطاني على الجبهة عديدة، متنوعة، إنسانية ، عن البشر المنسيين. حكايات عن الموت الذى ينتظره المقاتلون كل لحظة، عن الموت الذى قد تنجو منه مرة.. ومرة، ولكنه يطاردك. عندما قرأ جمال عبد الناصر تحقيقاته الإنسانية من الجبهة، وأخبر المقربين منه: «هذه نوعية الكتابة التى نريدها، إنها كتابة إنسانية». فى هذا الكتاب بعض من حكايات المصريين عن الحرب.

الصورة الكبيرة فى الخلفية لجنود مصريين يعتلون موقعاً إسرائيلياً فى خط بارليف حرروه أثناء نفس الحرب.

تصميم الغلاف: أحمد اللبّاد

الهيئة المصرية العامة للكتاب

ISBN# 9789779109725

6 221149 042889

المصريون والحرب

من صدمة يونيو

إلى يقظة أكتوبر

الغيطانى، جمال.
المصريون والحرب/ جمال الغيطانى. ـ القاهرة:
الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٦.
٢٢٤ص: ٢٠سم.
تدمك ٥ ٠٩٧٢ ٩١ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ مصر ـ تاريخ ـ العصر الحديث.
٢ ـ حرب يونيو ١٩٦٧م ـ مصر.
حرب أكتوبر ١٩٧٣ ـ مصر.
أ ـ العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب ٢١١٢١/ ٢٠١٦

I. S. B. N 978 - 977 - 91 - 0972 - 0

ديوى ٩٦٢،٠٣

المصريون والحرب

من صدمة يونيو
إلى يقظة أكتوبر

جمال الغيطانى



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠١٦

وزارة الثقافة

الهيئة المصرية العامة للكتاب

رئيس مجلس الإدارة

د. هيثم الحاج على

رئيس الإدارة المركزية للنشر

د. سهير المصادفة

اسم الكتاب: المصريون والحرب

من صدمة يونيو إلى يقظة أكتوبر

تأليف: جمال الغيطانى

الطبعة الأولى: الهيئة المصرية العامة للكتاب 2016

الإخراج الفنى: مادلين أيوب فرج

تصميم الغلاف: أحمد اللبّاد

الهيئة المصرية العامة للكتاب

ص.ب: ٢٣٥ الرقم البريدى: ١١٧٩٤ رمسيس

www.gebo.gov.eg

e-mail: info@gebo.gov.eg

إلى

مَنْ استشهدوا كي نبقى، وتبقى مصر

المقدمة

.. بعد يونيو ١٩٦٧، تعرض المقاتل المصرى لحملة نفسية واسعة، كانت فى حقيقتها موجهة إلى الإنسان المصرى ذاته، بتاريخه، ومكوناته الحضارية، ودار محور هذه الحملة، حول عدم قدرة المقاتل المصرى على خوض حرب حديثة، بل امتدت لتشكك فى قدراته القتالية، انطلقت هذه الحرب فى شكل أكاذيب مدعومة بوجهات نظر علمية زائفة، لدرجة أن أحد الباحثين الفرنسيين أعد رسالة علمية تقدم بها إلى جامعة السوربون، وتدور حول العوامل الحضارية والنفسية التى تجعل من المقاتل المصرى غير صالح لخوض غمار حرب، وبالطبع فإن هذه الحملة استندت إلى مجموعة من الأسس المادية العارضة كالهزيمة العسكرية عام ١٩٦٧، والجو النفسى الكئيب الذى ساد مشاعرنا فيما تلى ذلك من سنوات، وكما تصور الإسرائيليون، أن نكسة ١٩٦٧، كانت هى النهاية، شأنهم فى

ذلك شأن كل الغزاة والطامعين الذين هاجموا مصر عبر تاريخها الطويل. بدءًا من الهكسوس، والرعاة، والفرس، واليونانيين، والبطالمة، والعثمانيين. والفرنسيين. والإنجليز، وفى الناحية المقابلة ـ ناحيتنا ـ كان يمكن للبعض منا ألا يستطيع النفاذ عبر الحجب القاتمة التى أقامتها هزيمة ١٩٦٧، فيرى أنه لا فائدة، وأن المصرى لم يخلق للحرب، بحجة أنه إنسان حضارة وبناء.

ولكن كان هناك طريقان ينفذان عبر مرارة الفترة، ومن خلالها يتكشف الأمل، أولا، طريق مؤدى إلى عمق التاريخ المصرى الموغل فى القدم، والذى نرى خلاله كيف واجه الآباء والأجداد مواقف أكثر عتامة، وأشد إظلاماً، والطريق الثانى، هو الحاضر الذى نعيشه، واقعنا اليومى بعد الهزيمة، حيث عشنا رفض شعبنا للهزيمة، سواء فى الجبهة الداخلية، واتخذ هذا الرفض مظاهر عديدة، أو فى منطقة الصدام المباشر ضد العدو الإسرائيلى، جبهة القتال، حيث هدرت مدافعنا منذ الأيام القليلة التالية لانتهاء معارك عدوان ١٩٦٧، وخلال هذه الفترة الصعبة، كان الجيش المصرى يعمل فى ظروف غاية فى التعقيد.

كان على الجيش المصرى أن يعيد تجديد بنائه، وأن يصد فى الوقت نفسه اعتداءات العدو الإسرائيلى، ثم خوض حرب الاستنزاف حتى ١٨ أغسطس عام ١٩٧٠. ثم مواصلة التدريبات فى صمت، وبذل الجهد بلا حد حتى كانت الذروة فى ٦ أكتوبر ١٩٧٣.

خلال هذه الفترة الواقعة بين عام ١٩٦٧ وأكتوبر ١٩٢٧، كانت العوامل الحضارية فى التاريخ المصرى، أو عناصر الوطنية المصرية، تتبلور بوضوح، أو تعمل بشكل خفى مؤثر لتشكل سلوك الإنسان المصرى، وظروفه خلال هذه الفترة الحاسمة الحرجة من تاريخنا وفى مواجهة هذا كله لم تتوقف الحملات المعادية ضد المقاتل المصرى. تزيف التاريخ وتشوه الانتصارات، وتقلل من أهميتها، ولكن المستطلع لتاريخنا يجد أن مثل هذه الحملات قديمة قدم حضارتنا نفسها.

«لقد تعرض الإنسان المصرى دومًا لحملات التشويه، كان هناك إلهام خبيث لدى أعدائه يجعلهم يدركون الخطر الذى يمكن أن يحيق بهم مالم يعملوا بكل ما فى استطاعتهم لتشويهه، إلهام ينطلق من ذكاء بارع بما فى حضارة شعبنا من قيم إنسانية فطرية خيرة، تجعل جزءًا من جبهة العداء الممتد عبر التاريخ لكل أشكال الاستغلال والاستنزاف، جزءًا يتميز إلى هذا بخاصية المقاتل العنيد الذى يملك قدرة العطاء اللامحدود حرصًا على استمرارها وعلى تخليصها من أدران الظلم والطغيان[1]».

---

(١) صلاح عيسى: محاولة لفهم المقاتل المصرى، دراسة نشرت فى المساء، أعداد سبتمبر ١٩٦٧، وهذه من الدراسات الرائدة والمبكرة التى ظهرت فى أعقاب النكسة تدافع عن المقاتل المصرى.

نجد فى العالم القديم حملة مماثلة، استمرت عصورًا متوالية حتى يومنا هذا، مصدر هذه الدعاية أيضًا بنو إسرائيل، إذ أشاعوا نبوءة السخط والنقمة التى فاه بها بعض كهنة اليهود. وحاولوا تصويرها على أنها وحى سماوى تنزل من عند الله[1]، والحقيقة أن كراهية الإسرائيليين القدامى للمصريين، ترجع إلى أنهم سُخِّروا فى مصر تسخير العبيد، خرجوا منها كارهين ليضربوا فى تيه سيناء، ثم صحراء فلسطين، وظلوا يتمنون الهزيمة لمصر، والغريب أن الدولة الإسرائيلية التى تقوم الآن على اغتصاب حقوق الشعب الفلسطينى، لا تزال تتخذ من هذه الأحقاد القديمة مادة للدعاية ولتعبئة معنويات جنودها، برغم ادعائهم العصرية، والتقدم العلمى، وقد حدث فى ديسمبر ١٩٦٩، عندما قامت وحدة مصرية مقاتلة بعبور قناة السويس، فى القطاع الأوسط، واقتحمت دشم وتحصينات خط بارليف القديم، إلى أن عادت ببعض مخلفات الجنود الإسرائيليين وكان بينها نشرات مطبوعة تصور فرعون مصريًا يركب عجلة حربية ويطرد اليهود من مصر. وفى العصور الوسطى، وخلال الحكم العثمانى ترفع الأتراك على المصريين وتحدثوا دائمًا باحتقار عن الفلاح المصرى. وحتى وقت قريب كان تأثير هذا موجودًا فى البعض اذ يتباهون بانتمائهم إلى أسر يمتد

---

(١) عباس العقاد: سعد زغلول، ص ١١.

نسبها إلى أصل تركى، ويتبرءون من أصولهم الفلاحية، بل أن كلمة «فلاح» كانت تعتبر نوعًا من السب يطلقه التركى أو الباشا «المستترك» أو الإنجليزى المستعمر، عندما يسب المصرى، وليس هناك أصعب من الهجاء الذى تجده فى كتاب «هز القحوف فى شرح قصيد أبى شادوف» للشيخ الشربينى، والذى يدور كله حول تصوير نظرة الطبقة التركية المستغلة إلى ظروف الفلاح المصرى، وتصوير أوضاعه الاجتماعية البالغة السوء. أيضًا تجد الإنجليز يشنون حملة مماثلة طوال فترة احتلالهم لمصر، التى بدأت عقب هزيمة الثورة العرابية. ويصفون أحمد عرابى أنه (فلاح مصرى)، ثم يشككون فى مقدرة المصريين على القتال ويؤلفون فى ذلك الكتب، ويصيغون مناهج التعليم بحيث تؤدى لفترات طويلة أن تترك فى نفوس المصريين هذه العقيدة، وهى أنهم شعب غير مقاتل. متناسين أن الفلاحين المصريين كانوا يشكلون جنود وضباط الجيش الذى قاده إبراهيم باشا، ليفتح الجزيرة العربية، والشام، ويصل إلى بداية الطريق المؤدى إلى الأستانة، مهددًا بذلك الخلافة العثمانية لولا تدخل الدول الأوربية مجتمعة. والتاريخ يمتلئ بآلاف التفاصيل التى تدفع أى اتهام عن الإنسان المصرى.

وفى سنوات تاريخنا الحالية، شنت ضدنا حملة جديدة، مصدرها العدو الإسرائيلى، وضد الإنسان المصرى بشكل عام. والمقاتل المصرى بوجه خاص، لأن تشويه المقاتل المصرى، باعتباره

طليعة الكفاح ضد المستعمر المستغل يؤدى إلى تشويه الإنسان ثم تشويه مصر ذاتها، ولكن مكونات الوطنية المصرية، والحضارة، التى تحرك الإنسان المصرى هى التى تحسم الأمور، وتصد الدعايات المضادة وتمنعها، وتحولها إلى وقود يلهب طاقة النضال.

* * *

من خلال وقائع التاريخ المدون، تكتشف حقيقة موضوعية مهمة، وهى أن المقاتل المصرى أقدم من حمل السلاح فى التاريخ البشرى، فالحضارة المصرية تمثل فجر الإنسانية. وأقدم مجتمع بشرى، وأقدم مجتمع زراعى، وهذا يعنى أنه أقدم المجتمعات المستقرة. ولكن هذا الاستقرار كان يواكبه عامل آخر مهم، هو العامل الحربى، فالمجتمع الزراعى لم يخلق فى مصر مجتمعًا مستقرًا وادعًا، إنما اقتضى هذا صراعًا طويلا استغرق آلاف السنين، أضعاف تاريخنا الحديث، والإنسان المصرى يحارب الطبيعة القاسية، يحاول أن يروض النيل الوحشى. ومحاولة الترويض هذه استمرت طوال حقبات تاريخنا وحتى الآن، كانت مصر مليئة بالأحراش، والأدغال، والوحوش، وكان الإنسان يحارب الطبيعة حتى يضمن الرزق والاستقرار، ومن ناحية أخرى كان الصراع محتدمًا وقاسيًا بين الإنسان والإنسان. من هنا يقول أرنولد توينبي أن (الحضارة المصرية وليدة العنف، حضارة بنيت بالقتال).

وتبلور هذا الصراع. حتى تكونت فى مصر مجموعة من الدويلات الصغيرة المستقلة. وكان لكل إمارة جيشها الخاص. وكانت الحروب الداخلية لا تهدأ. حتى اتحدت هذه الدويلات فيما بينها وتشكلت فى مصر مملكتان. مملكة الشمال وعاصمتها (بوتو) بالقرب من دسوق، ومملكة الجنوب وعاصمتها نخب (الكوم الأحمر بمركز إدفو). وبحكم الوضع الجغرافى لمصر، حيث يمثل النيل شريان الحياة ومحورها الرئيسى الذى تدور حوله الحياة. وحتى تصبح السيطرة، على الطبيعة كاملة فلا بد من التحكم فى النيل كله. وهذا صعب فى ظل مملكتين منفصلتين، ومن هنا جرت عدة محاولات لتوحيد مصر، كان آخرها محاولة الملك «مينا» التى بقيت واستمرت. وكان هذا بداية لعهد الأسرات المصرية التى تعاقبت على حكم مصر.

وخلال هذه الحقبة، تمدنا الوثائق والنصوص التاريخية بمعلومات قيِّمة، عن الجيش المصرى الذى كان موجودًا فى عصر الدولة القديمة (٣٢٠٠ ق. م). كان العسكريون قطاعًا مهمًا فى المجتمع. وكان التجنيد يشمل جميع أبناء البلاد بدون تمييز، والخدمة فى الجيش تعتبر شرفًا. وخلال هذه الفترة يقول المؤرخون العسكريون إن الجيش المصرى طور أدواته الحربية وأسلحته، وكان الجندى المصرى أول من استخدم وسائل التمويه (الكاموفلاج). حتى لا يظهر للعدو بوضوح. فكان يطلى غطاء رأسه وملابسه

وأسلحته وعربته وجواده بطلاء ملون فى غير انسجام وعلى نسق ما يفعل اليوم الجند فى عرباتهم المسلحة ودباباتهم، وعتادهم الحربى. ويقول مونتوجمرى فى كتابه «الحرب عبر التاريخ» «إن المصريين قد برعوا فى فن الكمائن، وإن أجهزة مخابراتهم كانت ذات مستوى عال فى مجال الاستطلاع وتجميع المعلومات عن الجيوش المعادية»، والطريف أن كلمة (نفر) التى تطلق أحيانًا على الجندى، هى أصلاً كلمة فرعونية (نضرت). كانت تطلق على الجندى ومعناها الشاب الصالح.

وترجع أول وأهم المعارك الحربية التى خاضها الجيش الفرعونى، والتى وصلتنا معلومات مهمة عنها إلى عام ٢٤٥٠ ق. م فى الدولة القديمة، عندما تعرضت مصر لإحدى موجات الغزو الخارجى من قبائل الرعاة الساميين الرحل. الذين كانوا يتجولون دائمًا بحثًا عن المراعى، كانت غاراتهم على المدن الغنية، والواحات الخصبة لا تنتهى، لكنها فى معظمها كانت غارات متقطعة، تقوم بها جماعات متفرقة، لكنهم عندما قصدوا مهاجمة مصر، تجمعوا فى أعداد هائلة بقصد الاستقرار فى الوادى الخصيب، وهكذا تبدو هذه المحاولة، إحدى الهجمات الواسعة التى تعرضت لها مصر، والتى كانت تدفع المصريين إلى حمل السلاح، والاحتفاظ دائما بجيش قوى يدفع عن الوادى الخطر الخارجى، وقبل الاستطراد فى تفاصيل هذه المحاولة نلاحظ أن الإنسان المصرى على امتداد

تاريخه حارب فى اتجاهين. الأول ضد الغزوات الخارجية التى لم تنقطع، والثانى ضد المستعمر الذى كان ينجح فى احتلال البلاد، أو الحكام المستبدين، أى الثورات الشعبية.

وفى الوقت الذى تبدت فيه محاولة هؤلاء البدو، كان الشعب المصرى يبنى حضارة متقدمة على ضفاف النيل، ونلاحظ أن الوضع الجغرافى الفريد لمصر قد ساعد الإنسان فى بناء هذا المجتمع المستقر، إذ أن الطبيعة أحاطت مصر بموقع جغرافى جعلها محصنة. ولم تعرف البلاد أى خطر يأتيها من ناحية الشمال، لم تكن البلاد المطلة على هذا البحر تتمتع بحضارة متقدمة تجعلها تمثل خطرًا على مصر، وفى الغرب تمتد الصحراء التى يصعب على الغزاة اجتياحها. أما الشرق فكان يمثل المعبر الوحيد إلى البلاد الذى يستطيع الغزاة النفاذ منه. ومن هنا جاء هؤلاء الغزاة الأُول، وخلال هذه اللحظة التى تحتل موقعًا مبكرًا جدا فى التاريخ المصرى، تبدو استجابة البلاد للخطر الخارجى الذى يهدد الأمن، الحضارة والاستقرار، يهدد الأمن العام، أمن الوطن، وبالتالى الأمن الخاص للأفراد، للأسر الصغيرة التى تشكل فى مجموعها الأسرة الأكبر، مصر، وباستمرار كانت تتكرر هذه اللحظات الخطيرة، وفى كل مرة كانت الشخصية المصرية تتصدى له بأساليب تتفاوت وتختلف طبقًا للظروف التاريخية والحضارية الناتجة عن العصر نفسه، عندما بدأ الخطر سارع «بيبى الأول»،

فرعون مصر وقتئذ بتعيين «أونى» أحد رجاله قائدًا أعلى للجيش. بدا أونى فى تجهيز وإعداد جيش قوى، ليس جيشًا محترفًا. فالمصريون لم يحترف منهم أحد القتال بغرض القتال فى حد ذاته، ولم ينخرط أحدهم فى جيش دولة أجنبية كمرتزقة، فلم يعرف التاريخ المصرى الطويل هذه الظاهرة أبدًا، إنما كان المصرى يحمل السلاح دائمًا للدفاع عن الوطن أو للخروج فى حملات تستهدف مطاردة بعض الغزاة وتأمين البلاد. وفى لحظات الخطر لم يكن الجيش وحده هو الذى يتحمل مسئولية القتال، إنما كان أهل البلاد كلهم يهبون لدفع الخطر، يوجه جهد الوطن كله لخدمة الحرب. سواء أكان المعتدى من البدو، أم مستعمرًا من الهكسوس، أم الفرس، أو اليونانيين، أم التتار، الصليبيين، العثمانيين، الفرنسيين، الإنجليز، الإسرائيليين، إن الصورة التى يمدنا بها التاريخ عن هبة الشعب المصرى فى عهد الملك بيبى تتشابه مع أسلوب المصريين فى التصدى للخطر الخارجى خلال فترات التاريخ المختلفة، لقد تطوع الفلاحون من القرى، وجاء النوبيون، وسكان الواحات، ونجد ملحوظة طريفة تركها لنا (أونى) قائد الجيش على جدران مقبرته.

(إن رجل جزيرة «الفانتين» لم يستطع أن يتفاهم هو ومواطنه الذى يسكن شمالى الدلتا، ولكن لم يتشاجر أحد من الجنود مع زميله، ولم ينهب أحد منهم عجينة الخبز من جوال. أو يسرق نعاله،

ولم يأخذ أحد منهم خبز أية مدينة، كما لم يستول أحد منهم على عنزة واحدة من أى شخص).

وهكذا يعلو الإنسان المصرى فى لحظات الخطر، إن حياته مرتبطة تماما بالأرض، وأمام الغزو يجد حياته مهددة، ولا خيار هنا، أما التصدى للعدو وإبادته، أو الموت، فإلى أين يمضى؟؟، وخلال فترات المواجهة هذه يبدو العديد من العناصر الإيجابية التى تشكل الشخصية المصرية، والتى قد لا تبدو فى الظاهر خلال فترات الركود أو الاستكانة فى جيش «أونى» لا يشاجر أحد من الجنود زميله، ولا يعتدى واحد منهم على بضاعة فى قرية يمر بها الجيش، وفى مواجهة الهكسوس يضحى المقاتل من أجل زميله ووطنه، ويبرز عدد من الشخصيات الفريدة، مثل الملكة «تيتى شيرى» زوجة الملك سقنن رع، التى عاصرت جميع مراحل الكفاح الشعبى ضد الهكسوس منذ بدايته حتى حرب التحرير فى عهد حفيدها أحمس الأول، مات ابنها فى الحرب منهيًا المرحلة الأولى من مراحل الكفاح ضد الهكسوس، كان قد جمع حوله أبناء الصعيد، وسائر أبناء مصر الذين جاءوا من أنحاء مصر ليحاربوا الهكسوس ولا تزال جثته تحمل آثار جروحه التى استشهد بعدها فى الحرب، إن جثته فى المتحف المصرى الآن تثير فى النفس انفعالات كثيرة، هذا الوجه الملىء بالجروح الذى يطل علينا عبر آلاف السنين، استشهد دفاعًا عن مصر، إن جثته حنطت على عجل، لم تجر أية

محاولة لوضع الجسم فى وضعه الطبيعى المستقيم، الرأس ملقى إلى الخلف ومنثنيًا نحو اليسار، ولسانه بارز من فمه يضغط عليه بأسنانه، ساقاه منبسطتان بعض الشىء، أزيلت أحشاؤه من فتحة عملت فى بطنه، بينما حفظ الجسم بوضع نشارة الخشب المعطرة عليه فحسب. لقد تم التحنيط على عجل؛ لأنه استشهد فى ساحة القتال، ولم يكن هناك الوقت الكافى لتحنيطه كما يجب، ولم تمض إلا فترة قصيرة حتى أعلن (كاموس) حفيد تيتى شيرى استئناف الجهاد. حرر الأقاليم الوسطى «وكان جيشى شجاعًا يسير أمامى كعاصفة من نار» وقاد أحمس المرحلة الثالثة من الكفاح، وشهدت تيتى شيرى خروج الهكسوس من البلاد. كانت امرأة من عامة الشعب قبل أن تتزوج فرعون، وعندما أتخيلها أراها كإحدى نساء الصعيد النحيلات، الذين وضعتهم الظروف فى مواجهة الحياة، فيكتسبن صلابة، يصبحن كجذوع النخيل الفارهة الصلبة الميادة. إن هذا النموذج تعرفه الحياة المصرية، فى العديدات من السيدات اللواتى يواجهن بظروف صعبة فى مقتبل حياتهن، كأن يموت الزوج مثلا، عندئذ ترفض المرأة كل متقدم لها برغم صغر سنها، ومهما بلغ جمالها تتفرغ تمامًا لإدارة شئون حياتها، تربى الأطفال، وتخرج إلى الأسواق، تبيع وتشترى، وتعمل فى الأرض، لقد شاهدت العديدات من زوجات المقاتلين على الجبهة، يقمن بتصريف شئون حياتهن فى ثقة وإخلاص وتفان لا حد له، خاصة فى الريف، حيث

تخرج المرأة مع أولادها لتحرث الأرض، أو تتعهد الزرع، بحيث لا يقلق الرجل المتفرغ للقتال على شئون بيته.

لقد اشتعلت روح جديدة عارمة فى البلاد بعد طرد الهكسوس. اندفع الناس للتطوع فى صفوف الجيش، حتى ثقافة المصريين ومعتقداتهم الدينية لم تخل من التأثير الحربى، فخلعوا على كثير من الآلهة صفات أبطال الحروب والقادة، وفى مقدمتها آمون، سيد الآلهة المصريين أصبح ربا للحرب، وتكرر خروج الفراعنة إلى الشرق لتأمين حدود مصر وإخضاع القوى التى تفكر فى الإغارة على مصر. حدث هذا فى عصر «توت عنخ آمون» و «حور محب» و«سيتى الأول» وخرج رمسيس الثانى ليخضع الحيثيين عند قادش، ونكرر هنا ملاحظة أن المصريين لم يخرجوا كغزاة، لم يكن الغزو هدفا فى حد ذاته، إنما تأمين مصر هو الهدف، والدافع الرئيسى لخروج المصريين لمقاتلة الأسيويين أو النوبيين، لا يقتصر هذا على العصر الفرعونى إنما هى ظاهرة ثابتة ومستمرة فى التاريخ المصرى.

ها هم أمراء المماليك يخرجون لرد الخطر المغولى، ويهزمونهم عند (عين جالوت)، ثم يتصدون للويس التاسع فى دمياط والمنصورة، ويطاردون الصليبيين فى الشام حتى يتم اجتثاثهم من الشام، ويفتحون قبرص، وتصبح قبرص ولاية تابعة للسلطنة

المملوكية، فى عهد الأشرف برسباى. يتولى حاكمها بأمر من قلعة الجبل فى القاهرة، ونلاحظ أن الاتجاه لفتح قبرص ومحاولة غزو رودس تمت عقب الحملات الصليبية، أيضًا لا بد من الإشارة هنا إلى أن الجيوش المملوكية التى كانت تخرج لمحاربة التتار، أو الصليبيين، أو للجهاد، تعتبر جيوشًا مصرية خالصة، برغم أن النسبة العظمى من الجنود فيها كانوا من المماليك القادمين من أصقاع آسيا، فهؤلاء المماليك الذين انتهت دولتهم عام ١٥١٧ ميلادية، فى مرج دابق، كانوا ينشئون فى مصر، وكانوا يندمجون فى الحياة المصرية يؤثرون فيها ويتأثرون بها، وبمجرد خروجهم من خدمة السلاح يندرجون فى الحياة الاجتماعية المصرية تمامًا، ويمثل ابن إياس المؤرخ العظيم مثالاً واحدًا على هذا، فهو أحد أفراد أسرة مملوكية، لكنه اشتغل بالعلم وعاش فى المجتمع المصرى كأحد أفراده، وعندما نقرأ كتابه «بدائع الزهور فى وقائع الدهور» نجد روحًا مصرية خالصة، تنبض بوطنية مصرية صادقة. خاصة فى الصفحات التى يدون فيها أحداث الغزو العثمانى لمصر، وتعتبر صرخات ابن إياس فوق هذه الصفحات من العلامات المبكرة للوطنية المصرية، والمشاعر المبكرة للإحساس القومى الذى تبلور بشكل واضح فى بداية القرن التاسع عشر.

أيضًا كان المماليك ينشئون فى المجتمع المصرى، وإمكانيات هذا المجتمع هى التى تمد جيشهم سواء بالسلاح أو العتاد. وكانت

وظائف الإدارة فى الجيش يتولاها مصريون، إذن لا يمكن اعتبارهم مستعمرين، وهنا يجب التفرقة بين عصرين مملوكيين، الأول الذى كانت فيه مصر سلطنة مستقلة، تبسط حمايتها على البحرين والحرمين، والشام وأجزاء من آسيا الوسطى، وهذا العصر انتهى عام ١٥١٧، عندما انهزم الجيش المملوكى واستشهد السلطان الغورى فى مرج دابق، أما المظالم التى كانت تبدو من المماليك فى هذه الفترة فكانت تتناسب مع المظالم التى تعرض لها الشعب المصرى فى مختلف عصوره من الطبقات المصرية الحاكمة المتعسفة سواء أكان الفرعون أم السلطان، أو غيره، ولا تتناسب هذه المظالم إطلاقًا مع ما قاساه الشعب فى العصر المملوكى الثانى، عندما احتلت مصر بواسطة العثمانيين، وأصبح المماليك عصابات تنهب البلد مع العثمانيين، وسادت الفوضى.

إننا نجد السلطان الغورى عام ١٥١٧، يخرج على رأس الجيش ليدفع الخطر العثمانى، ونلمح فى هذه الفترة صورًا مصرية خالصة من الكفاح، يخرج الفقهاء والمشايخ يقرءون القرآن، وصحيح البخارى فى ركب الجيش، يلتفت الناس حول طومانباي يحملون الذخيرة، ويحفرون الحفر لتستقر فيها المكاحل «المدافع» ثم يلتفون حوله داخل القاهرة نفسها، وهو يبذل الجهد، لمقاومة العثمانيين، ويتباكون عليه عندما يتدلى من فوق باب زويلة شهيدًا، شجاعًا ولا تخمد مقاومة الإنسان المصرى، بل تستمر مقاومة الفتوات وأبناء

البلد، والحوادث اليومية فى كتب الجبرتى وابن إياس لا تخلو من ذكر وقائع العنف الموجه من أبناء مصر ضد المحتلين الأجانب.

وفى عام (١٧٩٨) حارب الشعب المصرى نابليون بونابرت الذى أخضع أوربا، ولم تمض سنوات قلائل حتى حارب الإنجليز (١٨٠٧). وفى أوائل القرن التاسع عشر فى عهد محمد على، أصبحت مصر دولة عظمى، خرج الجيش المصرى الذى كان قوامه كله من الفلاحين المصريين ليحارب فى الجزيرة العربية والشام وفى البحر، عندئذ تضافرت بعض الدول الأوربية ضد مصر، وفرضت معاهدة (١٨٤٠) التى ربطت مصر من جديد بالدولة العثمانية. ثم حارب الشعب المصرى تحت قيادة عرابى عام ١٨٨٢. ومن وقائع الثورة العرابية ترتعش النفس تأثرًا إذ تطالع بطولات الجنود المصريين، وتتلخص شخصية المقاتل المصرى وقتئذ فى الضابط المصرى الشجاع الأميرالاى محمد عبيد.

كان محمد عبيد فى التل الكبير، وفى إحدى الليالى تقدم الإنجليز يقودهم الخونة، والكارثة أن الجيش المصرى لم يرصد تقدمهم، وهكذا فوجئ المصريون بهجوم الإنجليز صحوا من نومهم ليجدوا الإنجليز بين خيامهم، يعملون فيهم النار والقتل، تشتت الشمل، واستشهد من المصريين فى هذه الليلة عشرة آلاف، فى جو الهزيمة هذه تبرز بطولة محمد عبيد، تلفت حوله، النار تحصد

أبناء وطنه، مصر تنتهك، مصر التى أحبها وثار من أجلها ماذا فعل؟ نصب العلم المصرى فوق مرتفع من الأرض، جمع الفيلقين اللذين كانا يرأسهما، وكان عددهم ثلاثة آلاف مقاتل، صوب الإنجليز عليهم المدافع، ركزوا كل قواهم ضد محمد عبيد وجنوده الذين راحوا يستشهدون واحدًا بعد الآخر، لم يبق إلا هو، فوقه علم مصر، نفدت ذخيرته فرمى الأعداء ببندقيته، وعندما فاضت روحه كان ممسكًا بالعلم المصرى الذى هوى معه مبللا بدمه فوق التل الكبير، نهاية طبيعية تتفق مع حياته الثائرة، ومع روح المقاتل المصرى، استشهد محمد عبيد فى مكان لا يبعد إلا كيلو مترات قليلة عن الموضع الذى استشهد فيه الفريق أول عبدالمنعم رياض بعد سبعة وثمانين عامًا، ثم استشهد فوق نفس المكان خيرة أبناء مصر وهم يحاربون العدو الصهيونى، وخلال رحيلى فى التاريخ المصرى، كنت أتوقف كثيرًا عند قصص البطولة التى يبديها الإنسان المصرى، وكنت أظن أن رواية التاريخ للحدث تضفى عليه أبعادًا لا يحتويها الحدث ذاته، ولكننى عندما اتجهت إلى أرض الواقع نفسه، وشهدت بعينى من خلال عملى كمراسل حربى ما يبديه الإنسان المصرى من صور بطولة، أدركت أن ما نقرؤه فى كتب التاريخ، وما نطالعه عن تضحيات جنودنا ما هو إلا بمثابة الخدش على سطح متعدد الأعماق، لا ينفذ إليه إلا من عاشه.

***

يقول الأستاذ العقاد فى مقدمة كتابه «سعد زغلول».

لو أحصيت الثورات فى تاريخ مصر القريب، لما كانت فى عددها دون ثورات الأمم التى اشتهرت بالتمرد ولم تشتهر بالاستسلام، فقد ثار المصريون على الفرنسيين، وثاروا على الترك، وثاروا على الإنجليز فى نحو قرن واحد، وكان للعقيدة والموروثات فى معظم هذه الثورات دخل أظهر من دخل المصلحة والمرافق القومية أو الفردية، وقدم العهد بالمدنية يتلخص فى حب الأسرة واستقرار النظام البيتى على أساس بعيد القرار، فنحن لا نستطيع أن نفهم كيف يكون المصرى محافظًا شديدًا فى المحافظة، ثائرًا متأهبًا للتمرد، إلا إذا فهمنا حبه لأسرة وحبه من أجل ذلك للموروثات والتقاليد، فهو محافظ كما تحافظ جميع الأسرات على تراثها، وهو من أجل المحافظة على التراث مستعد للثورة أبدًا لصيانة موروثاته وتقاليده، وقد يبدو غير معقول فى ثورته وهياجه لأن العهد بالناس أن يستغربوا الثورة من المحافظين المقلدين، ويزيدهم استغرابًا لها ألا يجدوا تفسيرًا لها من خوف الضرر على المصالح والمنافع فيقولون مدهوشين، أمثل ذلك الشعب الوادع المستقر يثور لمثل هذا الضرر اليسير أو لغير ضرر على الإطلاق، والواقع أن الذى يثور هذه الثورة غالبًا هو المحافظ المغرق فى المحافظة، لأنه لفرط محافظته ينسى المصلحة فى سبيل العادات.

إن الشعب المصرى لا يقبل الخضوع، أو الاستكانة فى مواجهة المحتل أو الأجنبى أو المستبد، ومن خلال مطالعة التاريخ المصرى الطويل نلاحظ أن الوضع الثانى للإنسان المصرى كمقاتل، هو وضعه عندما يثور فى ثورة شعبية عارمة ضد مستعمر أجنبى، أو يثور ضد حاكم ظالم، أو يشاك فى الأعمال التى تخدم الجيش الخارج لمحاربة عدو أجنبى، والتاريخ الإنسانى يسجل أحداث أول ثورة فى العالم من خلال ما وقع فى نهاية الدولة القديمة، عندما ثار الشعب كله ضد النظام الإقطاعى، وظلم الأمراء.. وجور الفراعنة، واستمرت الثورة ما يقرب من مائة وخمسين عامًا، وتركت آثارها العميقة فيما بعد على الحياة المصرية، ويبدو هذا واضحًا فى عصور الدولة الوسطى التى أعقبت الدولة القديمة، ثم شهدت مصر ثورة روحية عظيمة قادها أخناتون، ويرى بعض المؤرخين أن الثورة التى أحدثها أخناتون فى أيامه تعد ذات آثار لا تقل عن الانتقال من الوثنية إلى الإسلام وأبعد مدى من الانتقال بعدها من المسيحية إلى الإسلام. وهذا يكشف أن الثورة فى الجانب الروحى للإنسان المصرى كانت تنشب فى فترت مختلفة من التاريخ تمامًا كالثورة فى الواقع المادى، وفى أواخر الدولة الفرعونية بدأت دولة الفرس تحوم حول مصر، وتهيب كورش مؤسس دولة الفرس غزو مصر وتجنب هذا سنين عديدة حتى مات، برغم أنه كان يعلم بتحالف مصر مع الليديين والبابليين فى الحلف الموجه ضده،

فحارب بابل، وليديه، ولم يحارب مصر، ثم بدأ الفرس يتحالفون مع كافة أعداء مصر، ويستعينون بزعماء الإغريق المطرودين من مصر، وعندما قاد قمبيز جيشه لغزو مصر لم يستطع الدنو منها إلا بعد أن استوثق من خيانة ـ فانيس ـ اليونانى الذى اطلع منه على أسرار الجيش المصرى. وكان فانيس مقربًا من القصر الفرعونى، ورشا بدو الصحراء الذين دلوا قمبيز على بعض المتاهات التى مر من خلالها وفاجأ الجيش المصرى، ربما كانت نفس المتاهات التى قاد الأعراب منها جيش السلطات سليم ليفاجئ طومانباى من وراء الجبل الأحمر فى مواقعه عند صحراء الريدانية، وبرغم أن جيش قمبيز كان يبلغ ستة أضعاف الجيش المصرى وبرغم المذابح الرهيبة التى أحدثها والتى صار المؤرخون يذكرونها إلى فترة متأخرة، فيقول (ابن إياس)، وكادت مصر تخلو من سكانها، فكان النيل يفيض على الأرض فلا تجد مَنْ يزرعها، وبقيت مصر خرابًا لمدة أربعين عامًا، برغم هذه القطاعات فقد انفجر المصريون فى ثورة شاملة اشترك فيها الشعب كله، وذبحوا أعدادًا كبيرة من الحرس الفارس، سمموا الآبار وأشعلوا النيران فى اصطبلات الفرسان، وبعد فتح الإسكندر الأكبر لمصر، وبعد أن بدأ خلفاؤه فى توارث عرشها، ثار المصريون لأول مرة ضد حكم البطالمة فى عهد بطليموس الثالث.. (٢٤٦ ـ ٢٢١ق. م)، وفى عهد بطليموس الرابع خرج على رأس جيش ضخم إلى رفح لصد انطونيوس عدو حكومة مصر. وكان الجيش الذى

يقوده بطليموس يضم فرقة من الجنود المصريين يبلغ قوامها ٢٠،٠٠٠ جندى، وعندما التحم الجيشان انهزم الجناح الأيسر والأيمن، وكانا مُشَكَّلين من الإغريق، وبقى فى مواجهة جيش أنطونيوس الفرقة المصرية التى ثبتت وهزمته، غير أن هذه الفرقة ما لبثت أن ثارت على الحكم البطلمى، وامتدت الثورة لتشمل مصر كلها، تماما كما حدث عندما تولى الضباط المصريون أمور القيادة فى الجيش المصرى فى القرن الماضى، وكان هذا إيذانًا باشتعال الثورة العرابية، أيضًا عندما دخل أبناء الشعب الكلية الحربية هم الذين قاموا بثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢، لقد شملت الثورة مصر كلها ضد البطالمة، وجاء فى تقرير أحد رجال الشرطة وصف مقتضب لأعمال الثوار المصريين[1] «فى بداية الشهر هاجم المصريون المنازل المجاورة، وأحضروا عدة الهجوم.. وأسفرت المراحل الأولى من الثورة عن استقلال طيبة مدة تبلغ حوالى عشرين عامًا (٢٠٦ ـ ١٨٦ ق. م) واستمرت هذه الثورة حتى عام ١٨٤ ق. م، وخلال هذا العصر شن المصريون فى الصعيد حرب عصابات نهرية ضد سفن البطالمة مما دعا الحكومة إلى الاستعانة بأسطولها العامل فى البحر المتوسط لحفظ الأمن فى النيل، وانتهت ثورات المصريين ضد البطالمة بتقويض الحكم البطلمى بعد أن دب إليه الوهن والضعف،

---

(١) إبراهيم نصحى: تاريخ مصر فى عهد البطالمة.

وشهد العصر الرومانى ثورات عديدة للمصريين، ولكن ذروتها بلا شك، ما حدث عندما ظهرت المسيحية، ويعد عصر الشهداء من أضوى الفترات فى تاريخ نضال الإنسان المصرى البسيط وعندما كانت الدولة الرومانية تتخذ الدين المسيحى دينًا رسميًا لها كانت مصر قد لاءمت بين خصائصها وبين خصائص الدين القديم الأساسية، لقد خلقت دينًا قوميًا من المسيحية بعد أن مزجوا الديانة المسيحية ببقايا معتقداتهم القديمة. وتحملوا اضطهادًا بشعًا فى سبيل عقيدتهم، ومن مصر عرف العالم لأول مرة نظام الرهبنة الذي بدأ كنوع من المقاومة السلبية، وبعد فتح العرب لمصر، خاض المصريون ثورات عديدة.. فالعرب الذين استوطنوا مصرهم الذين أهاجوا الحجاز على عثمان بن عفان حتى قتل[1]، ثم قاتلوا الولاة الأمويين قتالاً مريرًا، وفى نهاية الدولة الأموية أقاموا خلافة مستقلة فى الصعيد، ثم حاربوا الولاة العباسيين، حتى اضطر الخليفة المأمون إلى الحضور بنفسه إلى مصر لقمع فتنتهم، وأقاموا بمنفلوط سنة ١٣٠٠ حكومة مستقلة فرضت سلطانها على الصعيد كله. وأنشأت جيشًا نظاميًا لا يقل عن جيش الدولة استعدادًا، وخلال فترة الحكم المملوكى كانت الثورات الشعبية مستمرة، والأشكال التى عبر بها الشعب عن تمرده تطالعنا فى الأخبار التى

---

(١) صبحى وحيد: فى أصول المسألة المصرية.

دونها المقريزى وابن تغرى بردى وابن إياس، تتمثل فى «العياق»[1] والزعر وأوباش الناس والمنسر، وهؤلاء كانوا يقلقون السلطة باستمرار، ويمدنا التاريخ المصرى المدون فى العصر الإسلامى بصور كثيرة من المواقف الثورية للإنسان المصرى فى مواجهة العسف المملوكى، وترجع غزارة هذه المواقف التى وصلتنا إلى تعدد مصادر تاريخ مصر الإسلامية والتى تدونه بالتفاصيل بدءًا من الفتح العربى وحتى أوائل القرن التاسع عشر، (بدءًا من كتاب فتوح مصر لابن عبد الحكم وحتى تاريخ الجبرتى). إن المصريين كانوا يشاركون فى إدارة الدولة المملوكية، يوجهون مصائرها بدون أن يكون فى سلوكهم شىء من روح العبودية، ومن خلال التاريخ المدون يبدو دور رجال الدين المصريين الثورى فى مواجهة السلطة المملوكية، لقد كانوا يتمتعون بنفوذ كبير وامتيازات واسعة، يحملون السلاح، ويخرجون إلى الحروب، وكانوا يقفون مواقف فى غاية الجرأة ضد السلاطين، عندما يفكر أحدهم فى فرض ضريبة جديدة فيها ظلم على الرعية، وفى بعض القضايا التى كان يقع فيها الخلاف بين السلطان والقضاة المصريين، كانوا لا ينزلون عن رأيهم حتى لو أدى الأمر إلى عزلهم كلهم كما حدث فى عصر السلطان

---

(١) أى من يعوق الطريق.

الغورى فى واقعة «غرس الدين خليل»[1] أيضًا قام الشيخ أبو السعود الجارحى باستدعاء الزينى بركات بن موسى، المحتسب، واحد كبار الدولة المملوكية، ويضربه بالنعال ويأمر بسجنه؛ لأن الزينى بركات ظلم بعض الناس[2]، ويوجه الشيخ شمس الدين الديروطى اتهامًا علنيًا إلى السلطان الغورى ويتهمه بالتقصير فى شأن الجهاد ويغضب على السلطان، فيرسل السلطان يسترضيه ويستميله بالمال والشيخ يعرض عن المال ويحقر من شأنه فما رؤى أعز من الشيخ ولا أذل من السلطان. وكان المماليك العتاة يلجئون إلى الأزهر يحتمون برجاله عندما تطاردهم الدولة وتتعقبهم ويتحدث الجبرتى عن الشيخ الدرديرى الذى يقود المظلومين من الناس، يقول لهم وهو يتجه بهم إلى بيوت قادة الانكشارية، هيا نهاجمهم كما هاجمونا ونأخذ منهم على قدر ما أخذوه منا، لقد خلد الشعب ذكرى الشيخ الدرديرى، كما خلد وقدس دائمًا ذكرى قادة نضاله وأبطاله، وما زال مقام الشيخ الدرديرى قائمًا فى حى الباطنية المجاور للأزهر يتبرك به الناس، وكان الناس خلال الاحتلال العثمانى يسبون المماليك والعثمانيين علنًا فى الطرق، ويمتلئ كتاب الجبرتى بحوادث الثورات التى كان يشعلها العامة،

---

(١) راجع، ابن إياس بدائع الزهور فى وقائع الدهور.
(٢) بدائع الزهور، ص ١١٢، الجزء الخامس.

ويثور الناس فى وجه حاكم عثمانى حتى ليرتعش غيظًا وغضبًا ويقول: «ما رأيت مثل أهل هذه البلدة ولا أقل حياء منها». وكان المصريون يمتلكون السلاح، ويجيدون فن القتال، وتؤكد لنا وقائع الحروب الصليبية أن العوام اشتركوا فى المعارك الكبيرة، وأنهم دخلوا الجيش، وخلال الثورات التى كانت تنشب فى المدينة، كان القاهريون يقيمون المتاريس فى الشوارع ويحشدون السلاح. غير أن فترة الحملة الفرنسية تشهد مواقف أكثر تبلورًا بالنسبة إلى مقاومة الإنسان المصرى للغزو والاحتلال، يهب الشعب ليمتلك السلاح، ويشترى الأغنياء السلاح ليحمله الفقراء، يقاوم أهالى الإسكندرية حصار الفرنسيين، وفى الدقائق الأولى يصاب الجنرال كليبر، والجنرال مينو بواسطة الأحجار المتساقطة عليهم، ويندر أن يصاب قائدان هذه الإصابات فى الدقائق الخمسة الأولى فى أية حملة حربية[1] وعندما يدخل نابليون إلى المدينة ويتجول فى شوارعها تطلق عليه النيران أثناء مروره فى أحد الأزقة الضيقة، وأسرع بعض الجنود باقتحام المنزل الذى أطلقت منه النيران، وجدوا رجلا وامرأة من عامة الشعب، ويكتب نابليون إلي حكومة الإدارة في فرنسا مسجلا انطباعه الأول عن مصر «هذه الأمة تختلف كل الاختلاف عن الفكرة التي أخذناها عنها من رحالتنا، إنها أمة

(١) اج، كريستوفر هيرولد. بونابرت في مصر ص ٩٣.

باسلة معتزة بنفسها»، ويكتب أخوه لوى فى خطاب إلى جوزف بونابرت يقول: «ان فى الشعب رباطة جاش مدهشة، فلا شىء يهزمه، وليس الموت عندهم أكثر من رحلة عبر المحيط عند الرجل الإنجليزى» ويصدر حكم الإعدام على زعيم الإسكندرية محمد كريم، وبرغم أنه خيِّر بافتداء نفسه بمبلغ ٣٠ ألف تلرو، ولكن كريم رفض وآثر الاستشهاد، وهذا موقف جدير بالتأمل لأنه سيواجهنا كثيرًا فى الجبهة المصرية، عندما يصبح على المقاتل أن يختار بين الحياة والموت، ويختار الموت ببساطة، ونقرأ تقريرًا كتبه الجندى مورستون، الوحيد الذى بقى على قيد الحياة من حامية المنصورة، والذى رفعه إلى الكولونيل لوجييه..

ترك الجنرال فيال أثناء مروره بالمنصورة فصيلة من ١٢٠ رجلا.. وفى اليوم التالى لرحيل الجنرال فيال باورطته، اغتال الأهالى ثلاثة من الجنود، رجموًا واحدًا منهم وهو يقف فى نوبة حراسته، والثانى وهو يأتى بالحساء للديدبان، والثالث وهو عائد من مكان حراسته.. وفى ذلك الوقت تحصنا فى البيت الذى اخترناه ثكنة لنا، وبعد يومين فى حوالى الثامنة صباحا أحاط بالثكنة عدد كبير من المصريين يحملون مختلف الأسلحة، وحاول احدهم أن يشعل النار فى البيت، ولكن أحد الجنود قتله، فحاولوا بعد ذلك هدم البيت، وبالاختصار استمر القتال إلى الرابعة مساء، وعندها خرجنا من ذلك البيت الذى فقدنا فيه ثمانية رجال. وبينما

نحن سائرون فى شوارع المدينة لنغادرها كانت الطلقات تأتينا باستمرار من نوافذ المنازل فنرد عليها بقدر استطاعتنا، فلما وصلنا إلى الخلاء طاردنا بعض هؤلاء الأفراد أنفسهم، وظلوا يطلقون علينا النار، وفى أثناء تقهقرى اخترقت رصاصة فخذى اليسرى. وفى الفجر كان منا على قيد الحياة ٢٥ أو ٣٠ وما يزال العدو يطاردنا، وإذ فرغ رصاصنا فقد دافعنا عن أنفسنا بالسلاح الأبيض، فلما لم يبق منا غير ١٥، ألقى حشد من الفلاحين الهائجين أنفسهم علينا، وجردونا من ثيابنا وقتلونا كلنا بالشوم، وألقيت بنفسى فى النيل لأنتحر غرقًا، ولما كنت أعرف السباحة فقد تغلبت غريزة حب الحياة على رغبة الانتحار، ووصلت إلى الضفة المقابلة، ورحت أسير بدون هدف، فرأيت سبعة فرسان من المسلمين يدنون منى فألقيت بنفسى ثانية فى النيل وإذ لاحظت أن اثنين منهم يشيران إلىَّ بالمجىء عدت إلى الشاطئ، فأطلق أحدهما النار علىَّ، لكن الرصاصة لم تنطلق، وقال الآخر شيئًا معناه الإبقاء على حياتى، ثم سلمنى إلى فلاحين مسلحين فأوثقا يدى وقادانى إلى قرية وأنا أمشى على طريق كله شوك آلمنى جدا؛ لأننى كنت حافيًا مجروحًا، وفك الأهالى وثاقى واعتنوا بى وأطعمونى وترفقوا بى كثيرا، وظللت على هذه الحال إلى اليوم حين أقبل القرويون ليخبرونى أن صندلا محملا بالجنود الفرنسيين يمر بقريتهم، ولا يفوتنى أن الشخص

الذى عنى بى أكثر من الجميع، هو طفل يبلغ من العمر ثمانية أعوام كان يأتينى خفية بالبيض المسلوق والخبز...».

فى هذا التقرير نجد الملمحين المتجاورين للمقاتل المصرى، الوحشية الفائقة فى مهاجمة العدو، والرقة الإنسانية وليدة الحضارة فى معاملة هذا العدو إذ يسقط جريحا، وهكذا يعلو الإنسان المصرى على غراء الانتقام بعدو أعزل ويمسك مشاعره ولا يندفع إلى التمثيل بعدو أسير، بعكس جنود الإمبراطورية الذين ذبحوا مئات الأطفال والنساء فى الإسكندرية، والقاهرة، والصعيد ويشن الشعب حرب عصابات بكل المقاييس العسكرية المعاصرة ضد الفرنسيين، فى المنزلة، وطنطا والفيوم؛ حيث وقعت انتفاضة عسكرية كبرى، وبلغت هذه الحروب حدتها فى الصعيد ضد حملة الجنرال ديزيه، وكان المصريون قد فهموا ظروف الحملة الفرنسية بعد تدمير الأسطول فى خليج أبى قير، ومن هنا كانت حربهم تشبه حروب التحرير المعاصرة طويلة المدى، كانوا يقولون: إنه انقطع أملهم من إمداد يأتيهم من بلادهم فقالوا فى ذواتهم نحن نضاضدهم ونحاربهم رويدًا ورويدًا يخلصون، لأن الذى لا يزيد ينقص». وكان بسطاء الناس جنود ثورتى القاهرة الأولى والثانية.

وتحفل الثورة العرابية بمواقف عديدة يبدو فيها الطابع المصرى خالصًا، واضحًا، كما يبدو لأول مرة فى تاريخ مصر الحديث

الالتحام الوثيق بين جيش مصر الوطنى وأبنائه، سواء بتبرعات الفلاحين والتجار من أجل الجيش، الفلاحات الفقيرات يبعن ميراثهن من الذهب أو خلاخيل الفضة ويرسلن أثمانها إلى الزعيم أحمد عرابى، والصناع والحرفيون والأطفال والنساء يساعدون فى حمل الذخائر وإخلاء الجرحى، وتقديم كل عون ممكن للجيش أثناء ضرب الإسكندرية، أو خلال معارك الثورة العرابية المسلحة، فى عزبة خورشيد، القصاصين، التل الكبير، دمنهور، كان جيشًا مصريًا وطنيًا خالصًا، ان ما هزنى خلال قراءة تاريخ الثورة العرابية وما كنت أتوقف أمامه كثيرًا، أسماء ضباط الجيش المصرى، يوسف أبو دية، البكباشى محمد أفندى خضر، البكباشى محروس أفندى، طلبه باشا عصمت، عبد العال باشا حلمى، راشد باشا حسنى، على باشا الروبى، أيضًا أسماء المصريين البسطاء التى وردت فى محاضر التحقيقات الخاصة بالثورة العرابية، والتى تضم العديد من نصوص التحقيقات التى أجريت معهم[1] منهم الفران، والحداد، والتاجر، ورجل الدين الذى يصيح فى قلب المحكمة، إنه لم يوقع على وثيقة بعزل الخديو، ولكنهم لو أحضروها له الآن لما تردد فى توقيعها لأن الخديو خان الوطن، ولا تمضى سنوات قليلة، إلا ويثور الشعب المصرى كله ضد الإمبراطورية التى لم تكن الشمس تغرب عنها وقتئذ، وكانت قد خرجت منتصرة من الحرب العالمية الأولى، وخلال ثورة ١٩١٩ بدت أساليب النضال المصرى مجتمعة.

المظاهرات السليمة، والإضرابات العامة، ولجان جمع التبرعات لمساندة الكفاح، وحمل السلاح فى مواجهة العنف، وهجمات الفلاحين المسلحة على جيش الاحتلال فى الأقاليم، السيطرة على مناطق بأكملها وإعلان استقلالها كما حدث فى المنيا وزفتى، الجمعيات السرية التى تقوم بالاغتيالات. وأمام جامع الأزهر فى ثورة ١٩١٩، استشهد ثلاثة عشر شخصًا تعاقبوا على حمل العلم المصرى، ثلاثة عشر رجلا استشهدوا من أجل الرمز الغالى برصاص الإنجليز، وكل واحد منهم كان يقوم على تسلم العلم يعلم تمامًا أن الموت ينتظره، لقد تكرر مشهد رفع العلم فى مظاهرات الطلبة عام ١٩٣٦، عام ١٩٤٦، ان الذين حملوا الأعلام كانوا لا يفهمون شيئا فى القتال ولم يسبق لهم استخدام السلاح. ولم يكونوا جنرالات أو مارشالات، ومع ذلك فقد حار فيهم الجنرال اللنبى القائد العسكرى البريطانى الذى حقق النصر فى الشام، أقرب الجبهات إلى مصر، وهزم الأتراك والألمان، وهدف بريطانيا من تعيينه مندوبًا ساميًا فى مصر هو استغلال سمعته العسكرية فى إرهاب شعبنا وتخويفه، ففوجئ ـ اللنبى ـ بعد أن رقى وأصبح مارشالا بشعب يتحدى انتصاره بصدره، بمجرد لحمه البشرى، والذى حير اللنبى هو تلك القدرة الفذة على الاستهانة بالحياة من أجل إيمان حقيقى ووجد كامل لمصر، تبلور فى قطعة قماش هى العلم المصرى.

وكانت صيحة «رفعت العلم يا عبد الحكم» من الصيحات التى استوقفتنى كثيرًا، وكنت أحاول من خلال القراءة المجردة فى تاريخنا إدراك السر الذى يجعل ثلاثة عشر شخصًا يتعاقبون شهيدًا وراء شهيد من أجل رمز مجرد، وفى جبهة القتال، وجدت ما بحثت عنه، أدركت جوهر الموقف، ليس بالمشاهدة فقط، وإنما بأحاسيسى الشخصية وانفعالاتى، عندما رأيت بعينى علمنا المصرى يرتفع فوق الضفة الشرقية لقناة السويس، ثم رأيت لحظة نزول العلم الإسرائيلى وارتفاع العلم المصرى فوق النقطة القوية فى لسان بور توفيق يوم السبت ١٣ أكتوبر ١٩٧٣.

* * *

الارتباط الشديد بالأرض، ملمح أساسى من ملامح الإنسان المصرى، باعتبارها مصدر الحياة، والكفيلة باستمرارها، والخوف والحرص على الأرض يعادلان الخوف والحرص على العرض، ألا يحدث أحيانًا فى ريفنا أن تقوم مذبحة من أجل «كوز ذرة» أو خلاف على رى الأرض، أو الاعتداء على جزء منها ولو ضئيل، إن رعاية الفلاح لأرضه وحنوه عليها وقضاءِ الجزء الأكبر من وقته فوقها، يعالج شئونها، يتعهدها، بل يضن على نفسه وأطفاله ويجود من أجلها، وكان إذا ما تهددها غرق أثناء فيضان النيل، يسرع ليسد بجسده الثغرة التي أحدثتها المياه، وهددت منها الرزق والحياة، بل

إنه يضيق المساحة التى يشغلها هو إلى أقل حيز ممكن، فتتجاور البيوت ويضيق اتساعها حتى يترك أكبر فرصة لانبساطها وتمددها، الا ينزح أحيانًا إلى مناطق جرداء رملية، ويروح يبذل من عرقه وجهده ما يبعث الحياة فى الجدب، والخضرة والنماء فى القحل، إن الفلاحين المتواجدين فى القطاع الريفى بجبهة القناة، والذين رفضوا التهجير بعد عام ١٩٦٧ وبقوا فى ظل الخطر، هم أحفاد الرجال المصريين الذين حفروا القناة، ثم بقوا إلى جوارها، يستصلحون الأرض حتى أصبحت تجود بأفضل أنواع الفاكهة والخضراوات، وخلال تاريخنا الطويل، لم نقرأ عن هجرات جماعية من الأرض إلى خارج مصر، باستثناء حالات بسيطة جدا فى عهد محمد على عندما اشتد الظلم ببعض الفلاحين فهجروا البلاد إلى الشام، وعندما كان المصريون يجبرون على ترك الأرض، كانوا يحملون الوطن معهم، وفى القاهرة نجد أحياء كاملة تعيش فى ظل تقاليد ريفية؛ حيث تجمع سكان كل ناحية فى مساكن متقاربة، وأقاموا جمعيات يلتقون فيها، ومنتديات تجمعهم، وتقدم العون لمن أدركته كوارث الزمن منهم، وأرق وأشجى ما نجده فى أدبنا الشعبى، هو أغانى الغربة والحنين إلى الأرض، والقرية، التى ينشدها عمال التراحيل وهم فى المدن الكبيرة.

«يا بابور الساعة اتناشر يا مجبل ع الصعيد»، أيضًا الأغانى التى كان يشيع بها الفلاحون أبناءهم الماضيين غصبًا للعمل فى السلطة،

وعندما جاءت سيرة الهلالية إلى مصر، قام القاص الشعبى المصرى بتمصير أحداثها، فجعل الصراع فيها يدور حول أراضى تونس الخضراء كما أن مصر فيها تسمى «المحروسة»، إذا ما حاق بها خطر، فان رجالها والأولياء يدفعونه، يردونه عنها، إن الارتباط بالأرض نتاج طبيعى للوضع التاريخى والجغرافى والحضارى لمصر، فإذا ما أراد عدو أن يزحزح الإنسان المصرى عن أرضه، إلى أين يذهب، ليس حوله إلا الصحراء من كل جانب، حيث الجدب والموت، إذن فإما أن يموت شهيدًا فوق أرضه، أو يبقى..

وحدثنى أحد أصدقائى الضباط عن حادثة وقعت له عندما ذهب إلى العريش فى أوائل الخمسينيات، وكان وقتئذ برتبة يوزباشى (نقيب) ليقود إحدى وحدات الجيش، عند وصوله قرأ ملفات خدمة الأفراد، ولاحظ أن أحدهم كان قد قضى عقوبة طويلة فى السجن بتهمة قتل، ولاحظ أن أفراد الوحدة يعاملون هذا الجندى كالمنبوذ، فلا يخرج فى خدمة، ولا يعطى سلاحًا أو ذخيرة، وفى أحد الأيام رفعت درجة الاستعداد فى الوحدة، واصطف الجنود كل يحمل سلاحه، فيما عدا هذا الجندى، ولاحظ الضابط وقوفه منعزلاً، وكان يعلم وضعه جيدًا، فسأله لماذا لا يحمل سلاحًا، حار الجندى فى الرد، وقال أخيرًا:

«يا أفندم أنا فلان..»

وأمر الضابط بأن يصرف له فورًا سلاح، ومقدار من الذخيرة يبلغ ضعف الذى صرف لزملائه وبعد انتهاء حالة الطوارئ فوجئ الضابط بالجندى يأتى إليه مترددًا.. «يا فندم أنا.. أنا فلان»، وهنا قال الضابط وكأنه لا يعلم شيئًا عنه «ما الذى تعنيه أنك فلان أو علان.. أنت جندى مثل كل الجنود»، وهنا بدأ الجندى الصعيدى يحكى قصته متلعثمًا. قاطعه الضابط قائلاً «هل تريد أن ترهبنى بأن تحكى لى أنك قاتل وكنت سجينًا..» صمت الجندى وأمر الضابط بأن يعين كحرس خاص له وأن يصرف له سلاح وذخيرة يظلان معه بشكل دائم، وفى الليلة الأولى لاستلام مهمته الجديدة، سمع الضابط صوتًا يستأذن فى الدخول عليه، أذن بالدخول، فإذا به حارسه الجديد، بدا مضطربًا وفجأة انحنى على يد الضابط يقبلها، ومن بين دموعه حكى قصته الحقيقية، لقد ارتكب أخوه الأكبر جريمة قتل بسبب نزاع قديم، وكان أخوه متزوجًا وله ثلاثة أطفال، وعندما قبض عليه، تقدم هو ليعترف بأنه هو الذى قتل، وليس أخوه الأكبر، لأن أخاه صاحب عائلة، وكان هو أصغر منه ولم يتزوج بعد، وضحى بنفسه من أجل أن يستمر شقيقه الأكبر راعيًا لأسرته.. وحتى لا يخرب بيته.

يتبع الارتباط بالأرض لدى الإنسان المصرى حب الاستقرار، ويتبلور هذا الحب فى الحس العائلى لدى المصرى وتقديسه

لأسرته، ارتباطه بها يبدو من أقدم العصور، فى النصوص الفرعونية التى تدعو إلى التمسك بالأسرة والحفاظ عليها، على التراث، على عرض الأم والأخت، احترام شيخوخة الأب والمسنين، وحمايتها.

«إذا كنت رجلاً ذا منزلة فاتخذ لك منزلاً واحبب قرينتك الحب الجميل، وأطعمها واكسها وطيب أوصالها، وأدخل السرور على قلبها طول حياتها».

«ضاعف لأمك خبزها وأحملها كما حملتك، لقد أثقلتها وما نبذتك، وظلت تحملك حول عنقها بعد ميلادك، وظل ثديها ثلاث سنين فى فمك، ولم تأنف من تنظيفك، ولم تقل قط ماذا أصنع بهذا، وأرسلتك إلى المدرسة تتعلم الكتابة، ووقفت لك بالخبز والشراب كل يوم تنتظرك، واذكر إذا تزوجت وانفردت بمنزلك كيف ولدتك أمك وكيف ربتك وتعهدتك بكل ما عندها من وسيلة، عسى ألا تصيبك بضرر ولا ترفع يديها إلى الله بالدعاء عليك، ولا يستمع الله منها إلى شكاية».

يقول الأستاذ العقاد..

«أما المصرى فغيرته على عرضه من نوع آخر، ولعلة أخرى، إذ يغار على الزوجة اعتزازًا بصداقة متينة وأرحام أمينة، وضنا بملاذ ألفة وسكينة، ومأوى سعادة وطمأنينة، وأنه ليغضب للزوجة وكأنه يغضب لقرابة تقطع أو محراب يهان.

وعرفت الحياة المصرية نموذج الابن الأكبر الذى لا يتزوج، ويتفرغ تمامًا لتربية إخوته الصغار وإعالة أسرته، وكثير من هؤلاء إذا سألتهم، لماذا لم يتزوجوا، يجيبك ببساطة قائلاً.. إنه ليس من المعقول أن يتزوج ويستقر قبل أن يضمن الاستقرار والحياة المضمونة لإخوته وفى أدبنا الحديث يمثل (أحمد عاكف) فى خان الخليلى لنجيب محفوظ مثالاً حيًا على هذا، إن هذه التضحية بالعمر من أجل الأسرة، التضحية بالخاص من أجل العام، يتبلور هذا الموقف أكثر عندما يقبل المصرى على التضحية بنفسه من أجل الأسرة الأكبر، مصر، فيحزم نفسه بالديناميت ليوقف هجومًا يهدد زملاءه، أو يقتحم بصدره دشمة يتحصن فيها العدو وتشكل خطرًا على رفاقه، إنه نوع راق من الاستشهاد، خلاله يبدو المصرى شرسًا وعنيفًا بحيث يتناقض هذا ظاهريًا مع وداعته وحبه للاستقرار لكن الحقيقة، إن الذى يبدو منه هذا العنف القاسى، الذى يقاتل بهذه الضراوة، هو الإنسان شديد الالتصاق بأرضه، بعائلته، فى الجبهة وعلى امتداد خمس سنوات كاملة التقيت برجال من كافة أنحاء مصر، من مختلف المهن والأعمار، رجال بسطاء جدًا، بعضهم يطرق خجلا ، إذا تحدثت عن بطولة أتاها، يراها هو أمر عادى، وفى الوقت نفسه تلمس فى أعماقهم كراهية حادة للعدو الصهيونى، إن كراهية العدو عند الجندى المصرى كراهية شخصية، كراهية انتقلت من المستوى العام إلى المستوى الخاص جدًا، وكثير من دول العالم

تحتاج إلى تربية أفرادها تربية سياسية وعقائدية طويلة قد تمتد سنين، حتى تتحول القضية العامة إلى قضية شخصية، يؤمن بها الإنسان البسيط فيموت من أجلها راضيًا، ويوجد أمامى بحث علمى أكاديمى أعده واحد من أبرز علماء النفس والأعصاب المصريين، الدكتور عادل صادق، يدور البحث حول «العنف عند الإنسان المصرى» وتناول نزعة القتال عند الإنسان المصرى بأبعادها الثلاثة، النفسية والاجتماعية والتاريخية، فمن الوجهة النفسية أكدت الدراسة أن المصرى إنسان مسالم بطبعه، يميل إلى الاستقرار والارتباط بالأرض والأسرة، ولكن هذا الميل الاستقرارى والارتباط العاطفى بالأسرة، أورثه طبيعة الاستمرار والحفاظ على ما يملك، فهو يدافع عن أرضه بحياته؛ لأنها تمثل استمراره واستقراره، وكذلك يذود عن كرامته وشرفه وبقاء أسرته بحياته، فهو لا يعتدى إلا إذا أعتدى عليه، ولا يلجأ إلى القتل إلا حينما يتعرض لخطر الفناء، ولعبت فكرة البعث بعد الموت دورها فى تأكيدها تلك الملامح، فالموت بالنسبة إليه ما هو إلا مرحلة مؤقتة ينتقل بعدها إلى عالم آخر أكثر سعادة وأكثر أمنًا، هكذا كانت عقيدة الفراعنة، وهكذا أكدت كل الأديان السماوية التى نزلت فى المنطقة، ومن الأشياء المؤكدة فى علم النفس أن الإنسان حين تسيطر عليه حالة انفعالية معينة مرتبطة بواقعه وتستمد مصادرها من اللا شعور، من عوامل توارثها فإن سلوكه فى هذا الوقت يكون

تلقائيًا وحادًا ومباشرًا، وتوجد حالة من الانفصال عن الذات، والدخول فى حالة من الانفصال يندمج فيها تمامًا بما يقوم به من سلوك وينفصل عن ذاته، هذا ينطبق على الإنسان المصرى وهو يحارب، فحين يحارب يكون أمامه واقع ملح يهدد سلامته وأمنه وكرامته وشرفه، وذلك يلتقى مع عوامل كامنة فى اللا شعور توارثها نفسيًا وروحيًا وتاريخيًا، لذلك فهو حين يحارب ينفصل تمامًا عن ذاته ويندفع بكل قوة لتحقيق هدفه غير مبال بحياته، لأن حياته فى هذه اللحظات تختفى وراء تحقيق الهدف الأسمى، لذلك نراه انتحاريًا فى حربه، وهو ليس انتحارًا بالمعنى المعروف لكلمة انتحار، وإنما هى حالة سعى لتحقيق الهدف الأسمى، وانفصال عن الذات المحددة التى تتضاءل أمام الهدف الكبير، وهو تحقيق سلام الوطن وأمنه واستقراره.

أما من الوجهة التاريخية والجغرافية فإنسان هذه المنطقة قد تعرض لظروف عدة هددت أمنه واستقراره، فدائمًا هناك غزاة طامعون، ودائمًا كان الإنسان المصرى محاربًا لأن تاريخ المنطقة كله حروب، لذلك كانت المهارة الحربية والاستعداد للحرب وتوقعها من المعالم الرئيسية التى تدخلت فى شخصية الإنسان المصرى، وهذا يؤكد أن المصرى محارب بطبعه، بحكم عوامل تاريخية وجغرافية وروحية».

****

قيمة الشرف، والحفاظ على ماء الوجه، من أبرز علامات سلوك الإنسان المصرى، نجد لديه حساسية بالغة لكل ما ينال من كرامة الشخص، أو كبريائه، وفى صعيد مصر قد تقوم حروب بين بعض العائلات نتيجة وصف جرح شعور بعض الأفراد، «قد لا يكون هناك مجتمع آخر تمثل فيه قيمة الحفاظ على ماء الوجه ما تمثله فى شخصية المصرى، ويؤدى الخوف من التورط فى أخطاء قد تنال من ماء الوجه «إلى ممارسة المصرى العادى لقدر من ضبط سلوكه يبلغ فى أحيان كثيرة درجة الكف المرضى، ويؤدى الإحساس بالضعة نتيجة لحدوث ما يقال عن ماء الوجه إلى إقدام المصرى على الانتحار فى بعض الأحيان[1] ولسنا فى حاجة إلى إبراز وضرب الأمثلة على ما تعنيه قيمة الشرف عند المصريين، والذى يدفع بعض الرجال من ريفنا إلى إنفاق سنوات عديدة فى مطاردة مَنْ تسبب فى سلب الشرف، وفى المحن التى يتعرض لها الوطن، تنتقل عادة الثأر من مستواها الفردى المتخلف، إلى مستوى عام متقدم، هذا ما نلحظه بعد عام ١٩٦٧، وخاصة فى حرب أكتوبر، حيث كانت الرغبة فى الثأر، والدفاع عن الذات، فى مواجهة ما لحقها من عدوان، تشعل صدور المقاتلين على اختلاف أصولهم الاجتماعية ومستواهم الثقافى، الثأر من أجل رفاقهم فى السلاح أيضًا، أشقائهم وأبنائهم

(١) عزت حجازى: الشخصية المصرية بين السلبية والإيجابية، والفكر المعاصر، العدد ٥ إبريل ١٩٦٩.

الذين استشهدوا، إن روح الشهيد تظل ظمأى طالما أن ثأره لم يؤخذ، وبعد عدوان ١٩٦٧، كانت الرغبة فى الثأر تلهب قرى الريف، خاصة فى الصعيد، كان الحديث عن ضرورة الحرب يسود كافة المناسبات والاجتماعات، حتى فى ليالى المآتم، كان الرجال بعد تلاوة القرآن يتحدثون عن ضرورة استئناف القتال، وخلال حرب الاستنزاف سرى فى سوهاج خبر نزول طائرة هليوكوبتر بها بعض جنود العدو، وكنت موجودًا وقتئذ بقرية (جهينة). وشهدت آلاف الرجال والصبية، يخرجون من بيوتهم، فى يد كل منهم سلاح لا تدرى أين كان موجودًا، بدءًا من المدافع الرشاشة وحتى الشماريخ والعصى مرورًا ببنادق الموزر واللى انفيلد. كانوا يتسابقون فى الليل متجهين إلى المكان الذى قالت الإشاعة إن العدو نزل فيه، رأيت ليلتها الرجال الذين حاربوا قوات الجنرال ديزيه، وأحرقوا قطارًا إنجليزيًا فى دير مواس بمن فيه من العسكريين، وهاجموا الحامية العسكرية الإنجليزية فى أسيوط ومنفلوط، مما جعل إنجلترا تهاجم المدينة بالطائرات، وتصبح أسيوط أول مدينة فى العالم تضرب بالطائرات، رأيت فيهم الرجال الذين خلعوا قضبان السكة الحديدية فى ثورة ١٩١٩، الذين تسابقوا للذهاب إلى القناة ١٩٥١، ولم يكن غريبًا علىَّ فيما بعد أن أراهم يلغمون أنفسهم وينسفون دبابات العدو ويقتحمون خط بارليف، ويحطمون العدوان وأسطورة العسكرية الإسرائيلية التى لا تُقهر.

البعث

بداية عام ١٩٦٩، بداية تعرفى على المقاتل المصرى فوق أرض الواقع، كلما قطعت السيارة جزءًا من الطريق الطويل، المؤدى إلى هذه المدينة الرقيقة، بورسعيد ترى رائحة الحرب، فى كافة تفصيلات الحياة التى بدأت تتخذ شكلا مختلفًا ومغايرًا، فوق الرءوس خوذات الحرب الحديدية، يسرع راكبو الموتوسيكلات، عدد كبير من وسائل النقل العسكرية التى يضفى عليها جو الحرب غموضًا خاصًا، فربما تكون سيارة النقل هذه تحمل ذخيرة إلى موقع ما، أو تنقل مددًا، أو تمضى إلى موقع متقدم لتخلى بعض الجرحى، الليل يتنفس الدخان، ورائحة البارود، صحيح لم تكن هناك انفجارات، الجو هادئ نسبيًا لكن تستطيع أن تلمس وتشم رائحة البارود فى الليل، وكأن دخان القنابل يخلف رائحة لا تتلاشى أبدا، بينما تجىء من بعيد أصوات انفجارات مكتومة، قذائف

المدفعية الثقيلة تنفجر في مكان ما، أين سقطت، مَنْ أصيب، ما الموقع الذى دمر؟؟ أسئلة كثيرة تتداعى إلى الذهن، وفى الصباح الصافى المشحون بالحرب، مضت بنا المعدية إلى سيناء، تشاء الظروف أن يتم أول لقاء لى بالمقاتل المصرى فوق سيناء، تجاوزنا مبانى بور فؤاد وطرقاتها.

هذه الرمال امتدادها الطبيعى أرض سيناء، هنا نواجه العدو بدون حواجز طبيعية، من فوق الرمال الصفراء التى تميل إلى اللون البنى، يمكنك أن ترى الضفة الغربية لقناة السويس حتى الكيلو عشرة جنوبًا، أو المنطقة التى تواجه رأس العش.

عند منطقة معينة من هذه الأرض، تختفى بيوت بورسعيد، الميناء الفسيح، يصبح بعيدًا عن مرمى النظر، الرمال الصفراء غامقة تنشع ملوحة البحر القريب، تختلط بها القواقع الصفراء، تمتد فى صمت مهيب غريب، أما الهواء ففيه لسعة من برد، وشىء آخر، أقرب إلى الشعور منه إلى الوعى، لكن بعد لحظات تراه، تحسه، تشعر به، فى الهواء، فى الرمال، فى السماء التى تبدو وكأنها تنتظر شيئًا ما، فى مياه القناة الزرقاء فى الحجارة، فى الحديد، ثم يبدو مجسدًا فى ثلاثة أو أربعة مقاتلين يرتدون الخوذات، يقفون فوق مرتفع.

حتى الكيلو عشرة جنوب بور فؤاد، كانت المنطقة المحررة من سيناء وقتئذ، وحتى ٦ أكتوبر، كان ممكنًا التجول والمشى فوق هذه

المساحة من الأرض، بدون أن يواجهنا رجل سحنته غريبة، لسانه أعوج، حتى الهواء فيه طعم القتال ورائحته، فوق مرتفع من الأرض، رأيته، شابًا صغيرًا متوسط القامة، فوق كتفه نجمة واحدة صغيرة، أحد ضباطنا هنا، قلت فى نفسى إنه مثلى فى العمر إن لم يكن أصغر، فى عمر أخى الذى يصغرنى، بالضبط لا يتجاوز الثانية والعشرين. حياته هنا وسط الرمال والمتاريس والمخابئ المحفورة فى الأرض وأكياس الرمل والدشم والمعارك اليومية، إذا ما نزل الإسكندرية بلدته، ينتابه قلق، منذ اللحظة الأولى التى يعبر فيها القناة إلى بورسعيد، فى المدينة الحلوة يسأل نفسه (يا ترى الرجالة عاملين إيه؟؟) (الموقف فى الموقع؟؟) إذا وقع اشتباك مع العدو وسمع أخباره من الإذاعة فإنه يكون مشغولا أكثر، يراوده ندم، عدم وجوده فى موقعه أثناء الاشتباك، إذا سهر مع بعض أصدقائه فلا حديث له إلا المعركة، نظرت فى عينيه، وجه ابن الثانية والعشرين، الرجولة وعنفوان الشباب، حجم الجسم الخاص بهذا العمر، مر بعض الجنود، كانوا يغسلون ثيابهم بعد سهر طويل، فى العيون دهشة لوجود مدنيين هنا، رفعوا أيديهم بالتحية، ليست عسكرية جافة روتينية، ليست لينة، التحية تعكس شيئًا جديدًا، راح يتكشف كلما مضيت هنا من موقع إلى آخر، قال الضابط الشاب إن وجود مدنيين هنا يسعدنا جدا، لا تتصور سعادة الجنود بهذا، وفعلا عندما التقيت بهم فى الخنادق كانوا يجيئون فى ابتهاج، يقدمون

السجائر ويبحثون عن أدوات الشاى، ويصرون بشكل يخجلنا فعلا، استأذن الضابط منا، ابتعد فى الصباح الباكر، وقفت أرقبه، عندما قامت ثورة يوليو ١٩٥٢.. كان عمره أربع سنوات، وها هو اليوم يقف مدافعًا عن مصر.

فى موقع متقدم، كان هناك رجال الصاعقة، القناصة، إعداد جديد للمقاتل المصرى يناسب ظروف المواجهة مع العدو، إن هذا الإعداد يمتد إلى كافة النواحى لكن بالنسبة إلى القوات، للقناصة، فأمامهما تشعر برهبة، إن رجال القوات المدربة على العبور للقناة، تحيط بهم هالة خاصة، ربما تعبر عن التجسيد الحقيقى لأجرأ ما وصل إليه المقاتل المصرى وقتئذ عبور القناة، واقتحام مواقع العدو، وخطفه وأسره، إن روح الجرأة والرغبة فى مقابلة العدو وجهًا لوجه تلمسها لدى كل محارب على الجبهة، والقناص أحد الرجال المقاتلين الذين خلقتهم ظروف المواجهة خلال حرب الاستنزاف، كان القناص محمود نحيلا، يجلس فى مربضه المواجه لمواقع العدو مباشرة، يستند جسمه على ساق واحدة، أما الأخرى فيستند إليها كوعه الذى يحمل هذه البندقية الطويلة المركب عليها منظار دقيق، يظل القناص فى هذا الموقع ربما عشر ساعات لا يتحرك، لكن عينيه إلى عينين حادتين، لا تملان ولا تكلان، إن القناص محمود ينتظر ظهور طرف أى جسم منهم والطلقة عنده تساوى واحدًا، طلقة واحدة فقط تنطلق من فوهة بندقيته لتستقر دائمًا بمهارة فى

منتصف الرأس تمامًا، وعندما يقضى مدة لا يصيب فيها أحدًا فإن الضيق ينتابه، وكثيرًا ما يتراهن مع زملائه من القناصة أو الضباط على إصابة فرد من أفراد العدو بعينه، إن القناص لا يطلق رصاصته بمجرد ظهور الفرد، إنما يتابعه، وينتقل بسرعة إلى مكان أفضل للضرب، وغالبًا ما يعرف خط سير الفرد من العدو، فإذا ظهر أمامه من خلف هذه التبة، فإنه بعد دقيقة سيظهر من أمام هذا المكان أو ذاك، ويكون عليه أن يصيبه فى هذا الوضع بعد أن يحسب اتجاه الريح، وسرعة الطلقة، وحركة الفرد، عملية معقدة إلى جانب عمل القناص الغريب الذى يستلزم منه صبرًا رهيبًا، لكن عندما تخرج الطلقة، وغالبًا ما يكون الهدف أحد الرتب، فلا بد أن تسمع بلاغًا إسرائيليًا فى اليوم التالى يعلن خسارة أحد أفراده، كان مقاتلينا من خلال مواقعهم المتقدمة، فى هذه الشهور الأولى من حرب الاستنزاف، يتابعون العدو، يراقبونه، يعايشونه أكثر مما يعايش نفسه، طوال النهار الجندى المصرى يرقب مواقعه، يعرف أفراده، يلحظهم، قال جندى المدفعية، وهو فلاح صعيدى من أسيوط إنه يعرف أفراد الموقع المواجه، بل يكاد يعرف كيف يتصرف كل منهم إذا بدأ الضرب، ابتسم وهو يشير ناحيتهم، (الواحد منهم لو حب يروح من مكان لمكان فإنه لا يمشى على رجليه. لكنه يحبو.. لا يجرؤ على الارتفاع بقامته وإلا ضاع) حتى على مستوى الأسلحة الثقيلة، فإن نفسيتهم تنعكس على طريقة استعمالها، فالدبابة مثلا

لا تواجه دبابة، يحاول الالتفاف بدبابته من وراء ساتر أو حاجز ليضرب ثم يعود ليختفى بسرعة، وقد اختبره جنودنا، خاصة رجال المدرعات، أو المدفعية، أصبحوا قادرين على إصابة معدات ثقيلة له لو حاولت مجرد الظهور، كما أنه يخشى ويتجنب الضرب على أهداف فعلية، لهذا يلجأ إلى عمليأت ضرب المدن، إن ضربه لمدينة بورسعيد لا يحتاج إلا لتوجيه المدفع فى اتجاه المدينة ثم إطلاقه، لكن أن يوجه مدافعه إلى مواقع، أو مدفع معين، فهذا لا يجيده فعلا، إن خبرة جنودنا بالعدو من خلال الاشتباكات المتوالية، جعلتهم أكثر فهمًا له وتعرفًا عليه.

وإذا ما نظرنا إلى موقف الإسرائيليين فى مواقعهم التى كانت تواجه قواتنا خلال حرب الاستنزاف وقبل التحرير، ربما أعطانا هذا بعدًا أعمق لفهم نوعية جنوده، إن العدو يغير جنوده فى هذا الموقع على فترات متقاربة، يعرف جنودنا هذا عن طريق الملاحظة الدقيقة، فالجندى الذى يمضى عليه يومان فى الموقع يكون دائمًا متخفيًا، لا يجرؤ على الظهور، أما الجديد فيبدو هنا وهناك، وبملاحظة تغير الوجوه والسحن والقامات، فهم من كل جنس وبلد كما يقول جنودنا، يلاحظون أن ثمة قوة جديدة قد وصلت، وأن القديم الذى انهارت معنوياته قد سحبه العدو، عندئذ يعدون له حفلة استقبال، وحفلة الاستقبال هذه عبارة عن قصف رهيب لمواقع العدو، وبعض الزيارات الليلية من قواتنا الخاصة، مع هدايا معينة

إلى العدو، بعضها ألغام، وقنابل، وطلقات مدافع، وفى اليوم التالى للوصول لا يجرؤ العدو على الظهور. وفى الليل اعتاد العدو أن يطلق عدة طلقات أثناء الليل ليطمئن نفسه، وبعض جنودنا أبناء الخدمة الليلية يرقبون هذه الطلقات ويحصونها، ولاحظوا بمرور الوقت أنها تكاد تطلق كل زمن معين، فأصبحت هذه الطلقات كالساعة بالنسبة إليهم، إذا أطلق العدو عشر طلقات فإنه يكون مضى من الخدمة ساعة مثلا.. وباستمرار الطلقات وبعدها يعرف متى تنتهى خدمته؟ بل إن بعضهم يكون جالسًا خلال الليل، وعندما تتساقط قذائف العدو حوله برتابة، يقول مسجلا سقوط القذائف، شمال.. طلقة يمين.. شمال.. يمين، وعندما تهدر المدافع يستمع إلى الضرب ويتابع: دى بتاعتنا، دى بتاعتهم، وهكذا. بمرور الوقت وبمضى النهار كانت الصورة تتدعم فى الذهن باستمرار المقاتل المصرى فى جبهة القتال، العلاقة بين الضابط والجندى، العلاقة بين السلاح والمقاتل، أمور تتضح فى كل ما يحيطك هنا فى شكل تحية الضابط للجندى أو الجندى للضباط، فى قوله.. «أهلا يا أفندم إزاى الصحة» فى مرورهم على ضفة القناة، فى إحاطتهم بالمدفع، فى نظراتهم تجاه العدو، فى حديثهم عنه، فى هذه الفترة بدأ الضباط يتحدثون بعبارات جديدة توحى بفهم علمى للعدو، لم يعد أحد يستهين به، ولا يبالغ فيه «العدو ماكر بيفكر، العدو خبيث خطته فى النقطة دى كذا وكذا، برضه لازم ما نقللش من خطورته

فى النقطة دى»، كانت ملامح الجييش المصرى الجديد، الذى اقتحم القناة بعد أربع سنوات قد بدأت تتضح وتتشكل.

***

«تعلب» نموذج عظيم للضابط المصرى الجديد، سمعنا عنه من أماكن بعيدة عن موقعه، وعندما رأيته لم أعرف أنه هو الضابط تعلب إلا عندما قدم إلينا نفسه، ثم جلس وقعدنا نستريح قبل انتقالنا إلى موقعه على ضفة القناة مباشرة، وجهه كأنه فلاح من الصعيد الجوانى، اسمه، عيناه ضيقتان، فمه مزموم، سريع الحركة، لا تعرف بالضبط نوعية ما يفكر فيه لحظة أن تنظر إليه، رداؤه أصفر، بسيط، خال من أية علامات، كأى جندى، أحسست فى شكل جلوسه، أننى أرى رجلا من الصعيد يجلس عند الجسر، فى إحدى قراه النائية، أو بجوار ماكينة المياه، وفيما بعد كنت أرى الكثير من جنودنا يجلسون خلال فترات الهدوء بجوار الدشم أو المدرعات، هذه الجلسة المصرية الشهيرة التى يجسدها تمثال الكاتب المصرى.

كان الوقت غروبًا، والغروب هنا غريب، فهو بدايات الليل، ليل الجبهة،.. سألته:

- انت من الصعيد؟

- من سوهاج.

ـ منين فى سوهاج؟

ـ تعرف بلد اسما جهينه؟

اهتز قلبى، وكأن الصعيد رجلا يرقبنا فى هذه اللحظة، قلت مجيبا السؤال بسؤال..

ـ تعرف ربيع حسام الدين؟

وتعارفنا، كأنى أعرفه منذ ألف عام، إنه معروف فى هذه المنطقة، كما يقولون، إنه كان راعب اليهود فى الموقع المواجه له، زحفنا وراءه عبر نفق طويل تحت الأرض لا بد أن تمشى فيه منحنيًا، وفى الموقع المطل مباشرة ضفاف القناة التقينا بضابطين آخرين، زميلين له. لم يغادر الموقع منذ ستة شهور، لم ينزل إجازات، والعداء بينه وبين العدو عداء شخصى، لقد رأيت هذا فى كثيرين من رجالنا على الجبهة، إن العداء الشخصى تجاه الإسرائيليين الذى يشعر به، ويجعله يأبى مغادرة موقعه ورؤية أهله ومدينته، هو أرقى وأعظم ما يمكن أن يصل إليه إحساس المقاتل تجاه عدوه، أن تتحول القضية العامة إلى قضية خاصة، إن العدو الصهيونى يهدد مصر، ومصر هذه ليست معنى مجردًا، إنها طعامى الذى آكله، وأختى التى يريد العدو اغتصابها أمام عينىّ، وأبى العجوز الذى سيشرد فى الطرقات لحظة تدمير بيتنا، وعملى الذى سأفقده، والأرض التى أمشى عليها، فيما بعد فوقفت طويلا أمام أحد

الفلاحين فى القنطرة غرب، كان نحيلا، يرتدى ثياب المقاومة الشعبية اسمه محمود إبراهيم. سألته ما الذى جعله لا يهاجر، وهنا خطر على حياته، فقال لى الوطن والعروبة، قلت له كلمنى أكثر، قل لى ما تحس فعلا، لماذا قعدت وحملت الفأس فى يد، والسلاح فى يد أخرى، وأنت طوال عمرك لم تذبح رجلا، لم تقتل، قال ببساطة تعبر عن كل شىء.. (هنا أرضى، أزرعها واكل منها أنا وعيالى، أموت فيها ولا أتركها، حاكل فين؟ حعيش فين؟ أنا أموت اللى يقرب منها ولا أمشى خطوه واحده).

***

قلت لتعلب وهو يأخذنى لنقترب من مزغل يطل على العدو مباشرة عبر القناة.

- البلد ما بتوحشكش؟

- طول ما دول هنا.. مافيش أهم من كده. عندما تظهر دبابة معادية، أو معدة ثقيلة، لو دمرها أحد الجنود يعطيه تعلب عشرة جنيهات من مرتبه الخاص، وقد حدث هذا فعلا، أن ثمن الدبابة اليهودية عنده عشرة جنيهات.

أمسكت بمنظار الميدان، كان بجوارى غطاء للرأس، قال.. لا مفيش حاجه المنظار يقرب مواقع الإسرائليين لدرجة أنك تستطيع عد حجارة الدشمة المواجهة، بأصبعه يشير إليهم، هنا كذا.. هناك

كذا، كان يعرف عن الناحية الأخرى كل شيء. رحت أتأمل مواقع العدو، للضفة الأخرى وللدشم ولقضبان الحديد طعم خاص، كأنها ملوثة، كأن كلمة «الإسرائيليين» لها وجه وعينان وآذان، تطل من هذه الرمال المسجونة بين فكيه، ارتفع صوت فيه شرشره، ضاقت عينا تعلب، انتزعت من تأملاتى السريعة لأعود معه إلى المخبأ الصغير، نظر إلى أحد جنوده، ظل هادئًا، دوى انفجار قوى مكتوم، قال بهدوء كأن كلماته تخرج من فوق شفته العليا.

ـ دى أسلحتنا.

جاء جندى يزحف عبر النفق، هناك سجائر ترفيهية للجنود، أمر تعلب بإحضارها، هذه الترفيهة التى تسعد جنودنا تتلخص فى عدد من علب السجائر، وأكياس الحلوى، بعض الهدايا البسيطة، إن هذه الأشياء البسيطة قليلة الأهمية فى المدينة، تسعد محاربينا الذين يعيشون بين النيران المستمرة، قال أحد الجنود وهو زجال الموقع، إنه كتب زجلا عن الضابط قائده، ربما كان هذا الزجل البسيط يعطى فكرة عن شخصية هذا المقاتل العنيد.

اسمه مليان بالخداع والمكر.

وقلبه طيب لكن قليل الصبر

ما يفوتوش فجر يوم ولا عصر

دايما بيعمل كوكتيل فى الأكل

وواخد الدنيا بالبساطة وسهل

وطنى ومخلص فى حبه للوطن.

وفى عمله بينسى إن له أهل

تعلب يرسل خطابًا إلى أهله كل شهر، آخر خطاب وصله من أخيه الأصغر يطلب فيه أن يراه، ارسل إليه لكى يحضر ويقضى معه شهرًا فى الجبهة، وأخوه تلميذ صغير فى الإعدادية، زحفنا خلفه فى النفق لنبدأ طريق العودة، سار أمامنا بخطى سريعة، لقد سمعنا عنه قبل أن نراه، حدثنا عنه ضباط آخرون زملاؤه فى مواقع بعيدة، أيضًا الجنود، وهذا يعنى أن الجيش المصرى قد بدأ يخلق أبطاله وقتئذ، بدءوا يولدون معمدين بالنيران، بالدم، فى موقع تعلب سمعنا عن جندى قناص، كان يواجه العدو فى أحد المواقع أثناء فترة التمهيد لم تكن هناك أوامر بفتح النيران على العدو بمجرد ظهوره، كانت جراح النكسة وقتئذ طرية، تنزف بلا حد، وكان منظر العدو يستفزه، أطلق النار على أفراده، فقتل منهم اثنين، اضطرت قيادة المنطقة إلى نقله للصفوف الخلفية فتظلم وعاد مرة أخرى ليمارس نشاطه، هددوه بالمحاكمة، كان مثل هذا التصرف وقتئذ يجر عواقب كثيرة، أعلن أنه لو حوكم فإنه سيقضى فترة السجن ويعود مرة أخرى، ليقوم بنفس العمل، وعندما تغير الوضع،

وأصبحت الأوامر تقضى بفتح النيران على أية حركة للعدو، احتل موقعه على ضفة القناة، أصبح يمسح الضفة الأخرى بنظراته بحثًا عن أى فرد معاد، فى موقع مجاور التقينا بالمقاتل محمود المصرى، كان رجلا هادئًا جدا، يثق بنفسه، يتخذ أوامره فى هدوء، إجاباته رزينة، ترى فيها عمق ثقافته، قرأ ليدل هارت، وفولروجيات وكثيرين من مفكرى الحروب، طالع الأكثر عن العسكرية الإسرائيلية، وهذه سمة من السمات المبكرة التى لحظتها فى ضباطنا خلال بداية حرب الاستنزاف، كانوا يتحدثون بعمق، بروح علمية، وكان كل منهم فى هذه الفترة البعيدة، عندما كانت مرارة الهزيمة شديدة كالعلقم، يتحدثون عن المقاتل المصرى، وقدراته، وتاريخه، ويضربون الأمثلة بنماذج حية «دا فيه ضابط راعب اليهود»، «دا فلان فى الحته الفلانية عامل كذا وكذا».

فارقنا تعلب عند نهاية القطاع المخصص له، رحت أراقبه وهو يبتعد عائدًا فى الليل كان العدو قد بدأ يطلق النيران، الرشاشات الخفيفة، يحاول أن يمزق رعبه الليلى، تتخلل هذه النيران طلقات كاشفة، عيارات حمراء اللون، تبدو فى الظلام خطا أحمر يصل بين ضفتى القناة، وكان الليل ينزف دمًا، فارقنا تعلب وليل الجبهة مكتمل، وكنا نتجه إلى موقع آخر، حيث وعدونا أن نلتقى ببعض الرجال الذين عبروا القناة.

ونمضى إلى القطاع الجنوبى، بينما تمضى شهور عام ١٩٦٩، حدة الاشتباكات تتصاعد، خبرة القتال لدى مقاتلينا تتزايد، العدو يدفع بطيرانه إلى المعركة، وهكذا بدأت قواتنا تتعامل مع الطيران الإسرائيلى، المدفعية المضادة للطائرات، والقوات الأرضية، ويصل الزمن الذى تستغرقه إحدى الغارات إلى ثمانى ساعات ونصف، حدث هذا فى خلال ديسمبر ١٩٦٩، وفى المقابل بلغت الإصابات بين قواتنا جريحين فقط من جنودنا.

هاهى مدينة السويس، إن الأهالى أصبحوا قادرين على تمييز أصوات الانفجارات، (دى بتاعتنا، دى عندهم، دى عندنا) طبعا يبدو هذا أكثر وضوحًا فى المواقع، حيث أصبح المقاتلون عظيمى الخبرة بالعدو، يميزون نوعيات الانفجارات نوعية القذيفة عيارها، المكان الذى تنفجر فيه، ومن خلال موقع متقدم لمدفعية الميدان جرى مشهد يلخص «الاستنزاف» الذى كانت تقوم به قواتنا للعدو.

هناك تحركات معادية.

العدو يحاول تعزيز بعض قواعده الأمامية، على الطريق يتقدم طابور مدرع للعدو، دبابات عربات مصفحة، هذا ما رصدته نقاط ملاحظتنا ورجال استطلاعنا، عيون جيشنا التى يرقب بها العدو، تم رصد التحركات، بسرعة تتوجه فوهات المدفعية إلى الشرق، أن تصل دبابة معادية من هذا الطابور إلى مواقع العدو الأمامية فهذا

يعنى تهديدًا لقواتنا يجب منعه، إذن يجب منعها من التقدم، كان النهار قد رحل منذ قليل، الآن يغرق الليل كل شىء، ثمة برودة فى الهواء، فجأة تمزق الصمت، تناثر أشلاء..

طلقة من مدفعيتنا الثقيلة.

انفجار له رنين مقوى، صوت خروج القذيفة، بعد ثوان جاء من الناحية الأخرى صوت انفجار مكتوم، لقد وصلت القذيفة سقطت فى المكان المحدد، توالت القذائف، ما أدفأ الشعور الذى يحدثه خروج قذائف مدفعيتنا، يعنى هذا الكثير، أن رجالنا بخير، أن مدافعنا تتكلم بصوت مرتفع، يعنى تدمير العدو، يعنى الأمن، وطوال الاشتباكات ضد العدو، وخلال حرب أكتوبر، كانت مدفعيتنا دائمًا هى صاحبة الكلمة العليا، والصوت المسموع دائمًا فى الجبهة، أن صوت خروج الدانات يعكس القوة والعراقة والخبرة والأصالة لدى (الطوبجية) المصريين.

بعد فترة بدأت مدفعية العدو ترد، طلقات متقطعة، شاحبة تشعر من صفيرها وتقطعها ثم انفجارها المكتوم أن ثمة اضطرابا يحكم تعاملها مع مدفعيتنا، وهنا كان العدو بعد فترة يلجأ إلى دفع سلاح طيرانه المعادى، ها هى طائرات العدو تقترب وبمجرد ظهورها صمتت مدفعية الميدان، كفت عن الحديث فترة.

لماذا؟

لأن الطلقة أثناء خروجها تحدث ضوءًا يسبق صوت الانفجار، وهذا الضوء يمكن من خلاله رصد موقع المدفع، ومن ثم تدميره، لهذا فعند ظهور الطائرات تسكت المدفعية وتبدأ وسائل دفاعنا الجوى فى التصدى لطائرات العدو، تحوم الطائرات على ارتفاع عال، تلقى (الفليرز) المشاعل، ضوؤها فاقع لزج، العدو هنا، الهلاك محلق، يسود الصمت المواقع والليل يدثرها بعتمة، الطائرات تحوم، غربان حديدية تحاول تلمس طريقها.

فجأة، تدوى طلقات مدفعيتنا المضادة للطائرات أن المقاتلين يتنفسون بارتياح، وتهمس الأصوات، «مدفعيتنا حتوريهم دلوقتى» يستأنف حوار المدافع، عنيف، قاس توالى قذائف الـ . م. ط، يشيع الطمأنينة فى القلوب، أن ما يحدث هو صورة حقيقة لحرب الاستنزاف، إذا ما حاول العدو أن يدفع بعربة من عرباته إلى أحد مواقعه الأمامية فإنها تدخل فى مرمى سيطرة نيراننا، تدمر، وعندما يحاول تغطيتها، فإنه يستعين بالطيران والمدفعية والدبابات، إذن كم تتكلف تغطية عربة واحدة تحمل طعامًا مثلا إلى جنوده، استهلاك الطائرات، وقيمة القذائف.

كان يحدث هذا يوميًا.

وبمجرد استدارة الطيران إلى الشرق، تهدر مدفعيتنا الثقيله، تبدو أصواتها وكأن انهيارات أرضية قد وقعت، صوتها غاضب،

جهم، يسمع على مسافات بعيدة، لاحظت أن خبرة قواتنا بالعدو عمقت أكثر، وجاء هذا نتيجة للجهد المبذول على المستوى العلمى، والمعايشة الدائمة للحرب فى الجبهة، أن معايشة مقاتلينا الطويلة لجنود العدو، مراقبته عبر القناة، ملاحظاتهم لأسلوب حياته، متى يستيقظ، متى يغير نوباته، متى يجيئه هذا الأكل، شكل الحركة التى تسبق إعداده لمدافعه، ملاحظة أفراد الموقع، كل هذه الأشياء الصغيرة جدا التى لا تعنى شيئًا فى نظر المدنى، إنما تعنى الكثير بالنسبة لمقاتلينا، لقد أصبحوا قادرين على فهم أسلوب معيشته، طريقة تصرفه، إن التصرفات طول تكرارها، رصدها، ملاحظتها من جانب مقاتلينا أدى إلى قدرة جنودنا على التنبؤ بما سيجرى، ثم الاستعداد للرد، إنها خبرة الحرب الثمينة المتراكمة عبر الدم والشظايا وتضحيات الرجال.

***

خلال الحرب، وبالنسبة إلى الصحفي الذى الى يتردد على الجبهة، تنمو علاقات مع المقاتلين لها طابع إنسانى فريد، يكون اللقاء فى أحد المواقع، تحت الخطر، الحوار حاد ودافئ وعميق، ومهما قضى من الوقت فإنه ينصرف بعد حين حاملا معه المادة التى سيصوغها فى مقالة، أو تحقيق، أو حديث تليفزيونى، تنمو بين المقاتلين علاقات قد يستمر بعضها طوال العمر على كل المستويات،

النفسى والشخصى والاجتماعى، صداقات من طراز خاص، ولدت تحت الخطر والانفجارات، وغموض الحرب، وأحد عناصرها حب مصر مواجهة الخطر، وقد يعود الإنسان بعد ذلك إلى نفس الموقع فيجد أحد من تعرف بهم قد استشهد، عندئذ يحاول استعادة ملامحه، الحديث الذى جرى بينهما، آخر ما تبادلاه من ألفاظ، يحاول تخيل اللحظة التى استشهد فيها صاحبه الذى لم يلتق به إلا مرة واحدة فى ليل حرب، وقد يستغرق لقاء آخر لحظات قليلة، وعند الافتراق، يتبادلان العناق كأنهما يعرفان بعضهما منذ عشرات السنين، أذكر لقاء بأحد رجال القوات الخاصة، حدثنى عن عمليات العبور التى كانت تقوم بها وحدات القوات الخاصة، وعند افتراقنا حدقت إلى ملامحه المصرية البسيطة التى تميز أى شاب طيب، ودود، أذكر عينيه، كان عليه أن يقود عملية قتالية ضد العدو فى عمق سيناء بعد قليل، وكان على ألا أعطله،ولم نلتق مرة ثانية أبدًا، لكن أثره فى نفسى أعمق من أثر أحدثه صديق أعرفه منذ سنين، حدث فى إحدى الليالى أن اتجهنا إلى قاعدة للصواريخ، ركبنا سيارتنا المدنية، وكان علينا أن نسلك مدقًا رمليًا يمضى إلى بطن الصحراء، لا يصلح لمشى سيارتنا، انتقلنا إلى عربة جيب، وطلب الضابط المرافق من سائق عربتنا محمد زكى ألا يغادر سيارته، وإذا ما جاءه أحد الجنود عليه أن يقول له كذا، وطلب منه إلا يتحرك إلى أى اتجاه، لأن هذا يعنى خطرًا على حياته، بعد أن فارقنا

محمد زكى قلت للضابط الشاب المرافق، إن سائقنا لن يطيق الوحدة وإنه سيحاول أن يجد من يتحدث معه، قال الضابط إن المكان الذى تركناه فيه من الصعب أن يتحرك منه، سكت، وفكرت فى محمد زكى الذى يتمتع بقدرة غريبة على اكتساب الأصدقاء إذا ما وصلنا إلى موقع وتركناه قليلا، عند العودة نجده يتحدث إلى عدد كبير من الجنود، يتكلم معهم بود فى شتى الشئون، ربما يشرح لهم كيف يعمل التليفون الداخلى بالسيارة، أو يحدثهم عن أحد كبار الكُتَّاب بالأخبار، أو عن الكرة، أو عن هموم شخصية، وعندما تراه يخيل إليك أنه يعرف الجنود منذ سنوات، وأنه صاحبهم، وأكل وشرب معهم، وكثيرًا ما تجده مع بعضهم فى أحد الخنادق أو الملاجئ، يقدمون له الطعام ويدعونه إلى الشاى، إنه تعارف البسطاء العميق، المؤثر، المهم أننا دخلنا إلى عمق الليل والجبل قضينا وقتًا فى قاعدة الصواريخ، وبين الحين والحين يقفز إلى ذهنى محمد زكى، والوحدة التى سيعانيها فى البرد، وعندما عدنا، اقتربنا من السيارة، نظرنا بداخلها، لم نجده، نظرت إلى الضابط، بدت حيرة أين ذهب، صحنا عليه عدة مرات، وفجأة جاءنا صوت، اقترب منا أحد الجنود، ألقى تحية المساء، همس إليه الضابط بكلمات، قال الجندى بعدها إن السيارة لفتت نظره، وعندما تأكد من شخصية السائق دعاه إلى الملجأ القريب، وفى الظلام بدأ محمد زكى ملتحفًا بمعطف الجندى السميك ممسكًا بكوب به بقايا

شاى، بعد أن خلوت إليه سألته عما حدث، فقال إن الجندى اقترب منه لما تأكد من وضعه قال محمد زكى إن الدنيا باردة دعاه الجندى إلى ملجئه القريب، خلع معطفه غطاه به، بدءا يتحدثان، حكى محمد زكى عن قسوة الظروف والعمل، وقال.. الله يكون فى عونكم هنا، ثم سأل الجندى عن بلدته هل هو متزوج، وقال الجندى إنه من بلدة كذا وإنه لم يتزوج، مع أنه أكبر إخوته، وإن أخاه الأصغر منه سنًا تزوج، وشقيقته أيضا، قال إنه حارب فى اليمن، وعندما عاد وجد شقيقه الأصغر قد شرع فعلا فى الزواج، أرجأ هو تفكيره الخاص بالاقتران بإحدى قريباته، ونزل إلى دمياط ليشترى أثاثا وما يعمر بيتًا لأخيه، قال إن أصحابه التقوا به وقتئذ، قالوا له مبروك، ظنًا منهم بأنه هو الذى سيتزوج لكنه يرد قائلا إن الأثاث لأخيه، كذا قماش الستائر، والأوعية النحاسية، قال إنه صرف كل ما ادخره حتى يستقر شقيقه الأصغر، قال إنه يرسل راتبه الشهرى إلى أمه فى البلدة.

حكى محمد زكى صاحب الوجه الذى يجعلك تثق به بسرعة، وتفتح له قلبك، تفاصيل كثيرة عن هذا الجندى، وعجبت فربما لا يعرفها عنه أقرب الناس إليه، لكن فى هذا اللقاء العابر فى ليلة حرب انفتح القلبان الإنسانيان على بعضهما، وقيل كل ما يثقل النفس، وما جرى، وبصراحة تامة، ربما لأن اللقاء عابر، لإحساس الإنسان أنه يمكن أن يرحل رحيلا أبديًا فى أية لحظة، ربما لشىء

خاص يرجع إلى محمد زكى، الطريف أنه بعد أن قص علىّ ما سمعه، ضرب يديه ببعضهما قائلا، أيه... نسيت أن أسأله عن اسمه.

فى جو الحرب تنمو أنقى العلاقات، ويعرف القلب البشرى طريقًا مفتوحًا إلى قلب آخر، بدون تزييف، أو أغراض، وأعترف أن أنقى العلاقات التى ارتبطت بها فى حياتى، وأشرف الرجال، وأشجعهم، وأدفأ الصلات، وأكثرها تأثيرًا فى النفس، وتعميقًا لحب مصر بلادى، تلك التى نمت من خلال معايشتى للمقاتلين فى الجبهة، لقد قضيت ليالى طويلة متوحدًا أذرف الدمع الحار، على مقاتل مصرى من هذا النوع الذى يأتيك انطباع عند رؤيته، أنه خلق ليستشهد، من جرأته، من البطولات الأسطورية التى أتاها، من تأثيره بين رجاله، من طريقته فى الحديث والتى تجعلك، تشعر أنك أمام راهب حرب، متصوف عسكرية، لو سودت آلاف الصفحات بأحد الأقلام وأكثرها موهبة، فلن يصبح هذا إلا بمثابة خدش فوق سطح متعدد الأعماق، هذا المقاتل التقيت به مرات قليلة، وعندما عرفت خبر استشهاده دهمنى حزن غامر.

فى الجبهة لا تتلون المشاعر، فالإنسان يقف عند الحد الفاصل بين الحياة والموت فى الجبهة صدق، وأسمى ما يقدمه الإنسان المصرى وأغلاه، حياته وذاته.

***

ديسمبر ١٩٦٩، التقيت به فى أحد خنادق القتال بالقطاع الجنوبى، شهدته يتابع معركة جوية ويتلقى بيانات كثيرة عنها، وعرفت فى وجهه فرحة نقية إذ جاء خبر إسقاط طائرة فانتوم فوق منطقة العين السخنة بواسطة مقاتلاتنا، فى هذا اليوم تم إسقاط طائرة فى القطاع الذى يعمل به المقاتل بدر. ورأيت بعينى الحرص الشديد على الدقة فى إصدار البيانات العسكرية يتصل بأكثر من وحدة، يطلب منهم التأكد التوجه التوجه إلى مكان سقوط الطائرة وبعد التأكد التام، تم إبلاغ قيادة الجيش، ثم صدور بلاغ عسكرى، أول حديث تبادلته معه حول الطيران الإسرائيلى الذى بدأ يدخل المعركة بثقة. قال إن دخول الطيران الإسرائيلى المعركة أحدث نتائج إيجابية منها تطعيم جنودنا ضد الطيران. لم تعد له رهبة، فى إحدى الليالى هاجم العدو مواقعنا على ضفة القناة، أطلق جنودنا نيران الأسلحة الخفيفة، هذه النيران صنعت سدًا فى الليل، بحيث لو انخفضت الطائرة لسقطت فى هذا السد، ولو ارتفعت لاصطادتها المدفعية الثقيلة المضادة، فى هذه الليلة هربت الطائرات، وألقت حمولتها على الضفة الشرقية، إن طيران العدو على ارتفاع عال لا يمكنه من إصابة أهدافه بسهولة، والطيار الإسرائيلى حريص جدا على حياته، بمجرد أن يرى الطيار الإسرائيلى طلقة حمراء أمامه فى السماء سرعان ما يرتبك ولا

يستطيع تميز هدفه، ومن ثم تسقط القنبلة على بيت متهدم أو فى أرض خلاء، قال المقاتل بدر، قارن هذا بفدائية طيارينا الذين هاجموا على ارتفاع عشرة أمتار لدرجة أن طائرة أحدهم احتكت بالأرض فاستشهد بالطبع تحدث خسائر، لكنها لا تمثل الحجم المماثل للغارات الإسرائيلية لقد تطعم رجالنا ضد الطيرن الإسرائيلى، وعندما يتم تغيير بعض جنود المواقع الأمامية المواجهة للعدو، فإنهم يعتبرون هذا نوعًا من الجزاء، يتساءل بعضهم، لم نفعل أى شىء يستحق المخالفة، ولكن عسكريًا لا بد أن يتم التغيير.

أذكر دخول بعض المقاتلين، أن البهجة على الوجوه، لقد أسقطت أول فانتوم فى سماء الجبهة بالميج ٢١، ويقول بدر معلقا، (إنها طائرة كأى طائرة.. قد تكون الماركة أفضل لكن تذكر أنها تسقط كالذباب فى فيتنام، إننى أشبهها بشركة أنتجت نوعًا من السجائر أو العربات، ثم افتعلت حوله ضجة، بروبجندا، حتى تروج السلعة وتحدث أثرًا فى نفوسنا، وسوف يجىء اليوم الذى تسقط فيه هذه الطائرات هنا كالفراش ونعرضها على أطفالنا.

وكأن المقاتل بدر كان ينفذ ببصيرة الشاعر فيه (فهو ينظم شعرا من أرق ما كتب) إلى حجب المستقبل، لم تمض إلا اقل من أربع سنوات، ورأيت فى نفس الموضع عشرات الفانتوم تحترق، تهوى.

***

بعد معارك يونيو ١٩٦٧، أصبح لفظ العبور يتردد كثيرا بين مقاتلينا، وفى البداية بدأت القيادة تركز على عمليات العبور خلال المشروعات التدريبية، ثم دفع أعداد محدودة من الرجال إلى الضفة الشرقية بغرض الاستطلاع، ثم القيام بعمليات قتالية ضد دوريات العدو المتحركة أو مواقعه الثابتة، فى البداية قام رجال القوات الخاصة بهذه العمليات، ومع مضى وقت قصير بالنسبة للقياس الزمنى أصبح كل مقاتل فى القوات المسلحة مدربًا على العبور، فى الوقت نفسه تجرى التدريبات لتحسين الوسائل واكتشاف إمكانيات أفضل، وفى بداية ترددى على الجبهة، حملت رغبة حادة، وهى رؤية بعض جنودنا الذين عبروا قناة السويس لمسوا بأقدامهم أرض سيناء، التحموا بالعدو وجهًا لوجه، اختبروه عن قرب، عادوا بأفراده، ترى ما نفسية هذا المقاتل؟ بأى شىء يتميز، ما الذى يشعر به إذ تلمس قدماه أرض سيناء؟ وقرب ضفة القناة، تحت ليل صيفى، جلست إلى مجموعة من مقاتلى جيشنا، ضابط شاب وخمسة جنود.. وسألت.

- أتمنى لو رأيت بعض الذين عبروا.

الليل هادئ، مثقل برائحة البارود، أمام جندى الصاعقة تشعر برهبة خاصة، أرقى مستوى قتالى وصل إليه الجندى المصرى، يرتبط فى الذهن دائمًا بالعمليات الفدائية، حيث الأعمار تقدم بسخاء على مذبح الوطنية وحب مصر.

قال أحد الجنود.

ـ عبرنا أكثر من مرة.. كلنا عبرنا..

أصبح العبور شيئًا عاديًا، حدثًا يوميًا فى حياة مقاتلينا، فى كل عملية قتالية تتجمع خبرات أكثر، فى نهاية ١٩٦٩ عبرت كتيبة مشاة كاملة بأسلحة الدعم قناة السويس ورفعت العلم المصرى، وسيطرت على الأرض أربعًا وعشرين ساعة، وفى موقع آخر جلست إلى رجال من نوعية أخرى، إنهم بعض المدنيين من أهالى السويس، نوعيات مختلفة من الإنسان المصرى، الموظف، التاجر، المهندس، الطالب، رب العائلة التى يبلغ عدد أفرادها سبعة أشخاص، كلهم تطوعوا كفدائيين، وتم تنظيمهم فى مجموعات قتالية ليقوموا بواجبات معينة.

رحت أصغى إليهم.

***

الساعة الثامنة صباحًا.

نهار الخريف فى بدايته، مياه القناة عند منطقة الشط تجرى هادئة، بين الحين والحين يقفز من تحت الماء سمك أصبح كبير الحجم، لا يصيده أحد وقتئذ، العملية معدة وموجهة ضد دورية متحركة للعدو، تدربوا على هذه العملية طويلا، وكما قال أحد

الرجال، كنت خلال تنفيذ العملية أشعر أننى أقوم بها بشكل أكثر بساطة من التدريب نفسه، وطئت أقدامهم أرض سيناء، تمنى الواحد منهم أن يلقى العدو بسرعة. عندما يصبح المقاتل المصرى على الضفة الشرقية للقناة، أرضنا التى كانت أسيرة وقتئذ، يصبح مندمجًا بكيانه كله فى المهمة التى عليه أن يقوم بها، حياته الماضية مستقبله، حاضره يصبح كله مندمجا فى اللحظة التى يعيشها، ينمو إحساس قوى بالزمالة، مازلت أذكر حديث مصطفى أبو هاشم قائد هذه المجموعة.

- لم أشعر بالزمالة مع إخوانى كما شعرت بها فى هذه اللحظة التى نزلنا فيها فوق الضفة الشرقية، إن المعايشة الطويلة، التدريب المستمر المتواصل، الصلات الشخصية، التى تربطنا جعلت الواحد منا قادرًا على فهم زميله أثناء المعركة، لم نكن فى حاجة كى ينبه الواحد منا الآخر لا يجب أن يفعله، كل واحد يتحرك متممًا لحركة زميله.. تمامًا كالجسد الواحد، لهذا الجسد امتداده على الضفة الأخرى، إن مقاتلينا فى مواقعهم على الضفة الغربية يصغون، يترقبون بكافة حواسهم خطوات العملية، إنهم أكثر قلقًا من مقاتلى الدورية أنفسهم، إنها روح العائلة، فيما بعد هذا التاريخ بأربع سنوات، وفى اليوم السابع من أكتوبر، ومع أول مجموعة من المراسلين الحربيين تصل إلى الجبهة، أثناء عودتنا من الضفة الشرقية، والقلب مفعم بالانفعالات، وسيناء تسرى فى الدم،

وضربات القلب، وصور العقل، وجوهر المعانى، رأيت وتلا من عرباتنا محملاً بالمقاتلين، كانوا قادمين من الغرب إلى الشرق ماضين إلى تحرير الأرض وإزاحة الكابوس، صاحوا مهللين مكبرين الله أكبر.

ورأيت عشرات المقاتلين يقفزون من جوف الأرض، من مواقعهم وخنادقهم الثابتة بالضفة الغربية، زارت أصواتهم بالتهليل، يحيون الرجال المتجهين إلى الشرق، ورأيت مشهدًا أضفى على الليل جوًا من السحر والغموض والدفء، مشهدًا لا يمكن أن تراه إلا فى جيش منتصر، ولا يمكن رؤيته أيضًا إلا فى جيش مصرى.

***

حدث فى العملية التى قادها مصطفى أبو هاشم أن طرأت ظروف جديدة، فبدلا من أن تجىء الدورية من الناحية المحددة لها، جاءت من الناحية الأخرى، وبسرعة، كانت الدورية تتلاءم مع الظروف، بحيث لم يطرأ على وحدتها، طريقة تصرفها أى اضطراب، هاجموا الدورية الإسرائيلية، فتحت النيران، بدأ الأمر سهلا، خرج جنود العدو من المدرعات، كل واحد منهم يحمل سلاحه، يتراجع هاربًا وسلاحه ملتصق بكتفه، لم يفكر أن يشرعه، جندى إسرائيلى آخر كان معه سلاحه ظل يرفع يديه ويخفضهما علامة الاستسلام، لم يستطع أن يمسك حتى بسلاحه ليقاتل. لقد اتضح لمقاتلينا عبر لقاءاتهم العديدة مع العدو وجها لوجه، أن الفرد

منهم حريص جدا على حياته، إنه مقاتل جيد طالما اختبأ وراء ساتر، أو فى دشمة، لكن الحرب مهما بلغت التعقيدات الإلكترونية، والمعدات الحديثة، فإن لحظة تجىء لا بد أن يواجه فيها المقاتل عدوه، هنا ينهار الفرد الإسرائيلى، إن الحرص الشديد على الحياة يؤدى إلى الخوف، إلى الجبن، إلى الموت.. عند العودة اصطحبوا معهم أسيرًا إسرائيليًا، عندما أبلغوا جنودنا أنهم قادمون ومعهم أسير، كبر المقاتلون وهللوا، وعندما وطئت أقدامهم الضفة الغربية، أسرع جنودنا بحمل الأسير وتقديم الثياب الثقيلة لأفراد الدورية، الإحساس عميق بالمشاركة، بوحدة الشعور، طاقة قتالية دافعها الإيمان الحقيقى، العناء، الرغبة فى الثأر، أحد أفراد هذه الدورية أب لسبعة أطفال، يقف على مشارف الخمسينات، رجل بسيط، عادى، يرى الواحد منا المئات مثله كل يوم، فى شوارع القاهرة، فى المنصورة، فى الإسكندرية، مدن الصعيد، وجهه كأى إنسان مصرى طيب، فى عينيه التواضع، والألفة والسكينة، شاب آخر، فى العشرينات، مسئول عن أسرة، أم وإخوه، إنه فى موقع رب الأسرة فالأب رحل منذ زمن، جاء متطوعًا بدافع من ذاته، إنه معفى من التجنيد بحكم وضعه العائلى، ولكنه سعى إلى الانخراط فى صفوف المقاتلين خلال هذا الوقت المبكر من المواجهة مع العدو، لم يسأل نفسه أن أكون أو لا أكون، لم يتردد، لم يتظاهر فى جلسات أصحابه بالألم من أجل مصر، والشعور بالرثاء لمصر، وهكذا يريح

نفسه فى سهرة أو جلسة ثم يتفرغ لأعماله الخاصة التى تتناقض مع كل ما قاله، لم يكن فنانًا كاذبًا أو يقف فى منتصف طريق الموهبة، يتخذ من جراح مصر، أو انتصارات مصر، مادة لمؤلف يتكسب منه، أبدا، عرف الطريق الصحيح باختصار، وبحسم، بدون تردد، وغيره الآلاف، الآلاف كلهم شبان عاديون جدا، بعضهم قد يطرق خجلا إذا تحدث إليك، هذه الرقة المصرية الدافئة، التى هى مزيج من احترام الضيف، والحرص من الغريب، والأدب الجم، عند الجلوس إليهم تصغى إلى حديثهم.

ـ لا يا راجل.. كان فيه اتنين فى الدبابة مش واحد.

ـ فاكر منظر الأسير لما شلناه.

حديث من نوع خاص، لا يمكن أن يتبادله إلا هؤلاء المقاتلون، الذين خرجوا معنا، دفعوا الموت عن بعضهم، واجهوا الموت معًا، عاشوا ليالى طويلة فى التدريب، فى الخنادق فى شوارع المدن المهجورة بقناة السويس يتذكرون حياتهم الخاصة، يتحدث الواحد منهم عن أطفاله لزميله، عن خطيبته التى يحبها، يقتسمون رغيف العيش معًا، إن العدو أمامهم واضح، وعندما يفارقهم الإنسان لا يملك إلا أن يسأل نفسه بحدة وإلحاح.

ـ لماذا لا أصبح مثلهم؟

***

المقاتل معتز أحد رجال الصاعقة، التقيت به وبرجاله مرتين، الأولى عام ١٩٦٩، والثانية يوم ١٣ أكتوبر ١٩٧٣. وبين الفترتين تاريخ طويل، كل منهما تمر فى مرحلة مختلفة، تتمم الأخرى وتكملها، معتز فيه سمرة أهالى بورسعيد، وجرأتهم، لا عجب فهو من مواليدها يتدلى من حزامه خنجر قصير، ومسدس يغطيه جراب بنى اللون، معتز فى هذا الوقت شديد الخبرة بمسالك سيناء، تدرب فيها، عرف مسالكها، دروبها، جبالها، كهوفها ومغاراتها عندما يتحدث عن سيناء تشعر أنه يتحدث عن شخص يعرفه، العلاقة بينه وبين سيناء علاقة شخصية، أول مرة دخل فيها إلى سيناء بعد معارك يونيو ١٩٦٧، كانت فى العام نفسه التحم مع زملائه المقاتلين أكثر من مرة مع العدو الصهيونى وجهًا لوجه.

رأيت أحد الرجال عائدًا من إجازته كان اليوم أول أيام العيد الصغير.

- لكن المعتاد أن ينزل الإنسان إجازته أول أيام العيد.. لا أن يعود منها أول أيام العيد.

يضحك المقاتل الشاب.

- كان المفروض أن أنزل فى العيد.، لكننى فضلت النزول قبل العيد لأسباب، لأقضى مصالح عديدة ولأرجع أقضى العيد مع إخوانى هنا...

ضحك ثم قال..

- لاحظ أن هذا يوفر عليَّ العيدية أيضًا.

ابتسم الرجال، أن ضابطهم إذ يعود من إجازته يحضر معه هدايا لجنوده، هدايا بسيطة، لكنها تدفع دمع التأثر من عينى البعض، كذلك عندما ينزل الجندى منهم إلى بلدته فإنه يعود بهدايا الريف إلى زملائه، الفطير المشلتت، الجبن القديم، فرخة على ما قسم، ومن خلال أحاديث رجالنا الذين عبروا القناة، اقتحموا الدشم والخنادق، من أحاديثهم عن المقاتل الإسرائيلى يمكنك، المقارنة بين الروح القتالية للجندى الإسرائيلى والمقاتل المصرى، إن المصرى ليس مجرد جندى عادى تلقى قدرًا من التدريب ودفع إلى ميدان القتال، إنما هو بالإضافة إلى هذا مزيج من أصالة وحضارة، أصالة موغلة فى التاريخ، وارتباط وثيق بالأرض، وخوف شديد من العار، ورغبة أقوى لدفعه وإزالته، وإحساس شديد بضرورة الثأر، وإيمان عميق يغذى شجاعته، أليست الأعمار بيد الله، ألا يوجد فى العالم الآخر مكان فسيح لكل شهيد فى جنات الخلد؟؟ إن حان أجله لا بد أن يدركه الموت ولو كان فى بروج مشيدة، يقول الجنود..

- إن الدانة إذا انفجرت على بعد متر منك فلا يمكن أن تصيبك إذا انبطحت أرضًا فى اللحظة المناسبة، ولكن إذا سقطت فوقك مباشرة فإن اسمك مكتوب عليها لحظة إطلاقها.

ومن خلال تجربتى الخاصة فى مواجهة الموت، يمكننى القول إن التعرض للموت مرة يشجع على مواجهته مرة ثانية، لست أدرى هل هو شعور خاص بى، ولكن لا شك أن هناك فى العسكرية ما اصطلح على تسميته باسم (التطعيم) ولكنى لا أقصد هذا، حدث أن تعرضت لموقف واجهت فيه الموت مباشرة، لم أشعر بأى خوف وقتها، ولكن خلال الأيام التى تلت هذا الموقف كنت غير مبال على الإطلاق، أشعر كأننى أعيش فى الوقت الضائع، أليس كان المفروض أن أموت يوم الأحد الماضى، ومضى الآن علىَّ أربعة أو خمسة أيام، إذن فقد عشت أكثر مما يجب، لا يهم إذن الموت، إذا تحدثنا بلغة العلم قلنا إن الموت يخضع لقانون المصادفة فى الحرب، فرب شظية فى حجم رأس الدبوس، قد تقتل جنديًا من اثنين متجاورين فى موقع واحد، هذا يموت وذاك يبقى، إنه الإنسان المصرى بإيمانه العميق بربه، يلخص الموقف قائلا (الأعمار بيد الله)، وهذا ما يدفعه إلى القتال بشراسة، وعنف، تمامًا كالمسلمين الأوائل الذين فتحوا الشام وفارس، كل منهم يسعى إلى الاستشهاد كى يفوز بالجنة.

بعد أربع سنوات، وبعد أسبوع من بداية حرب رمضان، وفى اليوم الذى استسلم فيه موقع لسان بور توفيق الحصين، التقيت برجال الصاعقة جنود معتز، كانوا قد هاجموا نفس الموقع فى

سبتمبر ١٩٦٩ وقضوا على ما يقرب من أربعين إسرائيليًا، ورفعوا فوقه العلم المصرى.

يوم ١٣ أكتوبر ١٩٧٣، رأيت بعينى العلم المصرى يرتفع فوق هذا الموضع الحصين، ولهذا حديث خاص، ولكننى بعد رؤية العلم، واستسلامى لسلسلة عنيفة من الانفعالات، شعرت أننى لو مت بعد هذا الموقف، سأكون راضيًا تمامًا، بل لو طلب منى القيام بعملية انتحارية، أدفع عمرى خلالها ثمنًا لما ترددت، ألم أرَ علم بلادى يرتفع فوق العدو، ربما كان هذا هو الشعور الذى دفع العديد من المقاتلين إلى تلغيم أنفسهم واقتحام مواقع العدو الحصينة.. ربما.

***

٢٢ ديسمبر ١٩٧٠.

أبرق الصحفى الأمريكى جاى بوشينسكى مراسل إذاعته وستنجهاوس وجريدة شيكاجونيوز بالبرقية التالية.

«وحين انتهت ذخيرة أحد المواقع، وكان به جنديان، قتل أولهما وأسر الثانى، ثم طلبوا من أحدهما أن يذهب إلى الفنار ليقنع من فيه بالتسليم، ثم عاد الجندى المصرى ليقول لهم إنه وجد المبنى خاليًا، وعلى الفور توجه ضابط إسرائيلى وعدد من الجنود لاحتلال المبنى وما كادوا يدخلون من الباب حتى فوجئوا بالنيران تنهال عليهم من مدفع رشاش.. كان بالداخل جندى مصرى جريح آثر أن

يقاتل حتى النهاية، بعد أن رفض زميله خيانته، ويبلغ عنه، .. فى شدوان رأى هذا المراسل الصهيونى ذلك الموقف، كان مليئًا بالدلالات، لم يكن الفنار خاليًا كما قال الجندى المصرى الجريح للإسرائيليين، كان يرقد داخله ضابط جريح محتضنًا مدفعه الرشاش غير أن الجندى المصرى رفض أن يخون قائده، لقد اتفقا فى لحظة، فى نظرة، وكل منهما يعرف أنه بعد قليل سيسلك طريق الشهداء، بكامل وعيهما ترى ما هى النظرات التى تبادلها مع ضابطه، ربما تبادلا بعض الكلمات بَحس خفيض، ولكن عندما عاد كان وجهه جامدًا، وتقدم ضابط إسرائيلى وبضعة جنود، تقدموا مطمئنين، ألم يقل لهم الأسير المصرى إن الفنار خال، اندفعت نيران الضابط المصرى تحصدهم كلهم.

فيما بعد عرفت أن هذا الضابط، كان ملازمًا بحريًا، أحد رجال البحرية الذين كانوا مسئولين عن إدارة الفنار بالجزيرة، لم ألتق به أبدًا، ولكنه يعيش فى ذهنى حيًا، وأثناء حرب التحرير فى رمضان كان يخيل إلىَّ أنه يعى كل ما يدور من فوق الموقع الذى استشهد فيه فوق صخور شدوان.

فى بلدتنا إذ يرون ذبابة زرقاء تحوم حول أحد الجالسين، يدركهم خشوع، ويتركونها تحط أينما شاءت لا يهشها أحد، بل إن البعض يناجيها بكلمات سلام وتحية، إنها روح أحد الذين ذهبوا إلى

العالم الآخر تحوم حول أحبابها، جاءت تطمئن على أحوالهم تقرؤهم السلام.

فى بلدتنا يؤمنون أن روح الراحل ترى الأحياء وتسمع كل شىء، وترى المستقبل، ولكنها لا تستطيع إقامة جسور الحوار مع الأحياء إلا من خلال الأحلام والرؤى.

فى بلدتنا يؤمنون أن روح الشهيد تظل هائمة لا تهجع، تصيح بالمارة، (اسقونى.. اسقونى)، ولا يفارقها الظمأ إلا إذا أخذ الثأر لها.

فى ٦ أكتوبر، يخيل إلىَّ أن روح شهيد الفنار، وأرواح رفاقه.. قد هدأت.. ويبقى الموقف العظيم الذى سجله المقاتل المصرى فى شدوان.

***

فى شدوان، وقف المقاتل المصرى يواجه العدو، رفض الانسحاب، ابتداء من صباح ٢٢ يناير ١٩٧٠، حتى الخامسة مساء الجمعة ٢٣ يناير، المسافة الزمنية المحصورة بين التاريخين، قدر لجزيرة الصخر القاسى هذه أن تفيض بمعان عظيمة، عميقة، تمامًا كالبحر العنيف، الذى ثار هذا اليوم لمرور «نوة» بحرية به، صباح الخميس كان عاديًا لكن عندما إشارت عقارب الساعة إلى تمام التاسعة، تغير كل شىء، لون النهار، طعم الهواء، أربع ساعات قصف متواصل، وفى الساعة الواحدة بدأت محاولات إنزال جنود العدو

بواسطة الهليوكوبتر، وتصدى رجالنا مقاتلو الصاعقة، أفراد قوة الحراسة بالجزيرة، التحموا بالعدو، وبسرعة، كان العديد من المعانى يتجسد، شبان من كافة أنحاء مصر، من مختلف المهن فى الحياة المدنية، مدرس ابتدائى، نجار موبيليا، نساج، موظف، تمثلت فيهم مصر فوق هذه الجزيرة النائية، منهم المقاتل شريف، ابن العشرينات، كان مسئولا عن قوة الحراسة فى الجزيرة، قضى شبابه فى مدينة طنطا، يقوم بتجميع أفراد القوة، كان يحرك المجموعات القتالية طوال الست وثلاثين ساعة إسناد المهام إليهم، عندما تمكنت القوة المهاجمة من النزول فوق الجزيرة، بدأت التقدم فى اتجاه الرجال، ارتفعت النداءات المعادية..

يا رجال الصاعقة أنتم محاصرون..

استسلموا بدلا من الموت.

الطيران فوقكم.

الجزيرة محاصرة وسوف نعامل الأسرى معاملة حسنة.

كان أمر المقاتل شريف حازمًا، مختصرًا

- افتحوا النيران.. قاتلوا من شبر إلى شبر.

وفى المساء، وقف رئيس الأركان الإسرائيلى يتحدث فى مؤتمر صحفى، قال:

«وعندما طلبنا القوات المصرية بالاستسلام - للأسف لم يستجيبوا، ولم يستسلموا.. ألا يذكرنا هذا بموقف مماثل مضى عليه وقتئذ ثمانية وثمانون عامًا، عندما وقف الإميرالاى محمد عبيد فوق التل الكبير وقاتل حتى استشهد مع رجاله تحت علم مصر. استمر القتال وفى الليل خرج المقاتل شريف مع رجاله إلى أنحاء الجزيرة لشن غارات متوالية ضد العدو، ربما طافت بذهنه صور عديدة لأسرته بطنطا، لمعارك سيناء، لدعايات العدو ضد المقاتل المصرى، حتى عندما استدعى طيرانه، ألقى بالمصابيح (الفليرز) لم يتوقف شريف عن شن الهجمات القصيرة المركزة، وفى البحر كانت قوارب البحرية المصرية والصيادين المدنيين تحمل المدد والذخيرة إلى الجزيرة، وفى البحر أيضًا كان هناك مشهد آخر، لقد غرق زورق طوربيد مصرى من الزوارق التى خرجت لنجدة الجزيرة، المقاتل ناجى يعوم، وبجواره المقدم حسنى حماد، إحساس المقاتل ناجى شديد بالمسئولية، أستاذه وقائده مصاب، يعوم بجانبه، يشغله وضع قائده ومعلمه وأستاذه حسنى حماد الذى خرج من الزورق برغم أن موضعه الطبيعى فى القاعدة البحرية، أراد حسنى حماد أن يغرق نفسه مرتين؛ لأنه شعر بما يمثله من عبء على رفاقه المقاتلين، حتى ألقى بهم الموج فوق جزيرة صغيرة اسمها (الجيفتون).. كان مرهقًا بعد تسع ساعات من الكفاح ضد الموج والموت، كانت الجزيرة خالية، صغيرة، لا يوجد بها أى حس، فيما

عدا ضريح صغير لشيخ، ولى، ما الذى جاء به إلى هنا، من أقام الضريح، لا أحد يعلم، فوق الجزيرة استشهد حسنى حماد، حتى جاءت وحدات الإنقاذ لتنقل الرجال، لا زلت أذكر الأسى فى عينى المقاتل البحرى الشاب ناجى، خاصة إذ يتحدث عن حسنى حماد، وزورق الطوربيد الذى انتهى كوحدة قتالية.. وفى جميع أنحاء مصر كانت القلوب مشدودة إلى الجزيرة النائية، يتابعون أخبار القتال وبالتأكيد كنا نذكر هذا البيان العسكرى الذى تسربت كلماته إلى أعماقنا ظهر الجمعة ٢٢ يناير ١٩٧٠.

«أيها السادة.. كانت خسائرنا حوالى ثمانين فردًا، بين شهيد ومفقود وجريح..» كانت شدوان علامة بارزة فى الطريق إلى أكتوبر.

***

منذ ما يقرب من أربعة آلاف سنة، قام أحد أجدادنا «سنوسرت الثالث» بعبور البحر الأحمر على رأس أسطول حربى، نزل على الشاطئ المقابل ليضرب فلول القبائل التى كانت تهدد الملاحة المصرية فى البحر، كانت أول حملة مصرية تعبر البحر الأحمر، ولم تكن المرة الأولى التى يحارب فيها الإنسان المصرى فوق البحر، فالمعارك البحرية دارت فوق النيل فى بداية الدولة القديمة، عندما كان يتم إخضاع بعض الإمارات المتمردة فى الوادى، ومن قبل، فى عصر الملك بيبى الأول، تمت أول غزوة بحرية فى تاريخ العالم،

اشترك فيها الجيش والأسطول، عندما قام القائد العسكرى «أونى» بالتوجه إلى سواحل فينيقية لتأديب القبائل التى اعتدت على حدود مصر، وهكذا يثبت التاريخ أن الإنسان المصرى ركب البحر وطوعه، سواء لنشر الحضارة فى حوض المتوسط وحتى سواحل الصومال، أو خلال الحملات الحربية التى تخرج لتأديب البدو المغيرين، وانعكس البحر فى الديانة المصرية القديمة، فها هو الإله رع يسير فى الفجر فى سفينة الصباح، وعند غروب الشمس تسبح فى سفينة الليل، أما النجوم فكانت تسبح فى قواربها الخاصة، كذلك كان للموتى قوارب لخدمتهم، ولهذا كانت توضع لهم نماذج منها فى مقابرهم. وفى العصر الإسلامى كان لمصر أسطول قوى سيطر على البحر الأحمر والأبيض، ووقعت مساحات كبيرة من المحيط الهندى تحت سيطرته.

هذه خلفية تكمن وراء هؤلاء الرجال، الذين يتحركون فوق مختف القطع البحرية فى الأسطول المصرى، وجهوا ضربات متلاحقة ضد العدو، إغراق المدمرة إيلات بواسطة لنش صواريخ صغير، كان هذا علامة فى الدور الذى ستؤديه الصواريخ فى الحرب الحديثة، عندما أفسدت الصواريخ حرية الطائرات المعادية، والدبابات خلال حرب أكتوبر، أيضًا أصابت سلاح البحرية الإسرائيلية بإفقاده عددًا من غواصاته بعد يونيو ٦٧، عمليات قصف الساحل الشمالى لسيناء بواسطة مدمراتنا طوال حرب

الاستنزاف، توجيه ثلاث هجمات ناجحة ضد العدو فى فترة لا تتجاوز ثلاثة شهور، إن نوعية السلاح الذى يقاتل به المحارب تنعكس على شخصيته والمقاتل البحرى المصرى تجده هادئًا جدا، حديثه أقرب إلى طريقة حديث رجل العلم أو أستاذ الرياضيات، فى إحدى قواعد البحرية التقيت بمجموعة من ضفادعنا البشرية، أحد المستويات الرفيعة والنادرة التى وصل إليها المقاتل المصرى المقاتل نبيل بالضبط فى الرابعة والعشرين حصل على ترقيتين استثنائيتين، وسيم جدا، شكله الخارجى لا يوحى أبدًا بما فى داخله، إذ يقترب الإنسان منه يكتشف أبعادًا مختلفة فى شخصيته، نبيل شاب كأى شاب من جيله، له نفس الاهتمامات، زرقة البحر فى عينيه، يحتفظ معه فى وحدته بآلة موسيقية، اسمها الميلوديكا، وبجوار البر الشتوى انسابت أنغام «الدانوب الأزرق» نفس تذوب رقة وشاعرية، ويغيب دقائق ليعود بلوحة حفرها فوق الخشب، تتأمل وجهه، ترى فيه مراحل العمر كلها، رقة الطفولة، توهج الشباب، حنكة الشيخوخة، تختلط كلها معًا، وفى لحظة معينة فى ظل ابتسامته، من هيئة أسنانه الجانبية، يطل قدر من الشراسة المخيفة للحظات.

يقول قائد الوحدة مبتسمًا «نبيل من أشرس مقاتلينا، اشترك فى الهجوم على إيلات مرتين، إن الجانب العنيف من شخصيته لا يبدو إلا فى ساعات القتال، أو التدريب القاسى، وأنظر إلى نبيل، إلى

ابتسامته، أراه مندفعًا فى الأعماق المظلمة تجاه القطع الحربية للعدو يضع المتفجرات فى قاع السفن، يقتحم المخاطر، لا يبالى، مستعد فى أية لحظة تواجهه خلال القتال أن يفجر نفسه ليفجر العدو.. أما المقاتل البحرى عمرو فنموذج آخر لرجالنا العاملين فى وحدات الضفادع، فى حديثه تبدو رصانة ثقافة عالية، ثقافة عامة، إن شخصيته تبدو هادئة، صامت، يميل إلى التأمل العميق، وعندما يتحدث عن ظروف العملية التى اشترك فيها ضد قطع العدو بإيلات، يصيغ المواقف التى مر بها فى عبارات لا يمكن لإنسان آخر أن ينطق بها إلا إذا مر بنفس هذه المواقف، وصفه للحظات الاندفاع تحت الماء، الإحساس بالعزلة بعيدًا عن العالم، إذ أن الضفدع البشرى فى الأعماق وحدة مقاتلة مستقلة، عالم قائم بذاته متحرك تحت الماء فى اتجاه الهدف، لا ينتظر معونة من أحد، ثم العودة، لحظة ملامسة الإنسان للأرض الصلبة؛ حيث يمكنه أن يمشى وأن يجلس وأن يتحرك، تلك اللحظة التى لا تعادلها لحظة أخرى، ثم وقوفه بين الناس فى الشوارع، يقرأ معهم نتائج عملياته فى الصحف، ويصغى معهم إليها فى البيانات المذاعة، هو أحد الذين صنعوا النصر، لا يدرى الواقفون أن هذا الوجه كان يواجه الليل والخطر، هاجموا العدو منذ ساعات، وخلال المعارك الحربية يدخل العقل المصرى فى صراع ضد العقل المعادى.

***

حدث فى صباح الثلاثاء ٦ يونيو ١٩٦٧، أن كانت الفرقاطة طارق مكلفة بأعمال المرور والحراسة أمام شواطئ الإسكندرية، فجأة ظهر رذاذ يتطاير فوق سطح البحر الهادئ، وبسرعة وضعت ثلاثة احتمالات.

(أ) إما دخان مدخنة وفى هذه الحالة ينزل جنب السفينة.

(ب) إما دخان مدفعية وفى هذه الحالة يكون على شكل دوائر، يصحبه رذاذ ماء.

(جـ) إما ستائر دخان وفى هذه الحالة يكون أغزر وأكثف من هذا بكثير.

وبمجرد صعود قائد السفينة إلى الممشى، عرف أنه ناتج عن إطلاق طوربيد من غواصة ترقد على عمق بسيط تحت الماء، فى سرعة لحظية أمر الماكينات بزيادة السرعة لأقصى درجة، بحيث تسير السفينة فى مواجهة الطوربيد تمامًا، لماذا؟!، لأنه بالمواجهة يكون مسيطرًا على تغيير زاوية المقدم علاوة على أنه يمكنه مهاجمة العدو بأسرع ما يمكن، أيضًا مثلما حدث، ومن المعروف أن إطلاق أو صدام الطوربيدات بسفينة عبارة عن مسألة حساب مثلثات، أهم أضلاعها سرعة السفينة، وزاوية المقدم، فإذا ما تغير أى واحد منهم فإن المسألة سوف تفشل، وبالتالى لن يصيب الطوربيد هدفه.

وقد دفعته خبرته إلى تغيير الاثنين معًا، غير السرعة، وغير زاوية المقدم، فتفادى الاصطدام بالطوربيدات، وفعلا، مرت الطوربيدات على بعد أمتار من السفينة.

تمت المناورة فى خمسين ثانية فقط.

خمسون ثانية هى المدة الفاصلة بين لحظة رؤية الطوربيدات، ولحظة الابتعاد عن مسارها، إلى هنا وكان يمكن للمواجهة أن تنتهى، غير أن طبيعة المقاتل البحرى المصرى أبت عليه هذا، فى ثوان كانت الفرقاطة (طارق) تتخذ وضع الهجوم.

بسرعة، حدد قائد السفينة المصرية موقع الغواصة التى أطلقت الطوربيدات، كيف؟

لقد أعلنت الغواصة الإسرائيلية عن مكان وجودها، بمجرد إطلاقها الطوربيدات، الموقع تبين من اتجاه الطوربيد سرعته ٤٠ عقدة، نظرًا لأنه إنجليزى الصنع، وهذه إحدى ميزات الإلمام بكافة التفاصيل عن سلاح العدو، وبمجرد تحديد الزمن والمسافة التى تبعدها الغواصة عن السفينة المصرية، حتى كان جحيم من قذائف الأعماق ينصب على الغواصة كانت مفاجأة مذهلة للقائد الإسرائيلى الذى لم يتوقع أبدًا أن تفلت الفرقاطة طارق من طوربيدات الغواصة، ثم تبادر بالهجوم، الهجوم الحاد والعنيف صحيح أن الغواصة الإسرائيلية لم تغرق تمامًا، إنما أصيبت

إصابات مباشرة أدت إلى إعطابها تمامًا، ومن أجل هذا نال قائد الغواصة وسام البطولة الإسرائيلى: لأنه تمكن من العودة بالغواصة دون أن تغرق، وتمضى شهور، وفى ١٥ يوليو ١٩٦٩، يزاح الستار عن هذه العملية، يصدر أمر بتقليد كل من شارك فيها نوط الشجاعة العسكرى.

***

إنه نفس قائد السفينة طارق.

الزمان ٢٥ يناير ١٩٦٨، الساعة ١٢ ظهرًا، والمكان، مياهنا الإقليمية فى البحر الأبيض المتوسط، حالة البحر عادية، زرقة صافية يعلوها زبد الماء الأبيض، إحدى سفن التدريب الحربية التابعة لقواتنا البحرية عائدة إلى قاعدتها بعد جولة تدريبية، فوق ظهر السفينة يقف قائد الرحلة، يمسح الماء بنظراته، لمح بيروسكوب غواصة، البيروسكوب يعوم بسرعة تجاه سفينة التدريب المصرية، لا توجد غواصات مصرية هنا، هذه مياهنا الإقليمية، إذن الهدف معاد، بسرعة خارقة كان الطلبة يتخذون مواقعهم القتالية فوق السفينة الحربية المصرية، كان من الواضح تمامًا أن الغواصة تتجه إلى الهجوم على المركب المصرية، كان يمكن للسفينة أن تتجنب المواجهة، خاصة وأن السفينة فى رحلة تدريبية والمقاتلين معظمهم من طلبة الكلية البحرية، إلى جانب المقاتلين الذين اكتمل تدريبهم،

لكن طبيعة المقاتل المصرى أبت عليه تجنب المواجهة، احتل الرجال مراكزهم القتالية، فى ثوان، بعد عدة مناورات ناجحة نفذت بدقة مثالية، تمكنت السفينة المصرية من تحقيق هذه العملية التى يطلقون عليها «ركوب الغواصة» أى اتخاذ موقع إستراتيجى يمكن من خلاله إصابتها إصابة مباشرة وفى لحظات كان جحيم من قذائف الأعماق ينصب فوق الغواصة، واختفى الهدف من شاشة الرادار.

وفى الأيام التالية تصدرت مانشيتات الصحف العالمية أخبار عن غرق غواصة إسرائيلية حديثة كانت فى طريقها من إنجلترا إلى إسرائيل، كانت إسرائيل قد اشترتها من فرنسا وأرسلتها إلى بريطانيا لإجراء تحسينات عليها وتجديد تسليحها بحيث تصبح أخطر قطع الأسطول الإسرائيلى، وغادرت الغواصة موانئ بريطانيا يوم ٩ يناير، بعد أن أمضت فترة تدريب فى ساحل سكوتلاندا، وانتهزت الغواصة فرصة عودتها لتواصل تدريباتها فى البحر الأبيض، ربما كان هذا هو السبب الذى جعل عودتها تتأخر إلى إسرائيل عن الموعد المحدد لها، ويبدو أنه السبب أيضًا وراء تسللها إلى مياهنا الإقليمية يوم ٢٥ يناير، وعندما حانت الساعة الثانية عشرة من ظهر هذا اليوم كانت (داكار) تختفى إلى الأبد وفوقها ٦٩ ضابطًا وجنديًا إسرائيليًا.

وفى هذه الفترة لم تكن العمليات الحربية قد تصاعدت بيننا وبين العدو الإسرائيلى، كنا فى مرحلة إعداد قواتنا المسلحة، وعندما حملت الصحف أنباء داكار الغامضة، أذكر أننى أقنعت نفسى مع كثير من الأصدقاء بأن بحريتنا هى التى أغرقتها ربما كنا نحاول رفع روحنا المعنوية فى وقت اشتدت فيها أزمتنا النفسية بعد الهزيمة، رفضنا تمامًا أى احتمال آخر ينفى إغراقنا لداكار. ولم أكن أدرى أن الشهور سوف تمضى، وأنه فى لحظة معينة من الأيام الأولى لشهر ديسمبر ١٩٦٩ سوف تتاح لى الظروف التى يتبين من خلالها المصير الحقيقى لهذه الغواصة.

لكن لماذا تظهر أية علامات من العلامات المتعارف عليها بعد إغراق (داكار) من المعروف أن الظواهر التى تصحب إغراق غواصة، إذا أصيبت مباشرة فإن محتوياتها القابلة للطفو تظهر على سطح الماء، علاوة على بقع الزيت، لكن من الممكن أيضًا لقائد الغواصة أن يقوم بعملية تضليل فيرمى أمتعة الغواصة عن طريق طوربيد، كذا بعض كميات الزيت، وقد تصاب الغواصة إصابة تؤدى إلى إغراقها دون ظهور أى آثار، كشرخ فى البدن فيتسرب منه الماء، وقد تصاب فى مكان تتسرب منه المياه المالحة إلى حجرة البطاريات فتتفاعل ويظهر غاز الكلور الخانق، ويبدو أن هذا ما جرى (لداكار).

وهكذا افتتح مجموعة من طلبة بحريتنا حياتهم القتالية، بإغراق أخطر غواصة لدى العدو وهم بعد لا زالوا طلبة.

***

وعلى امتداد جبهة القتال، فى القطاع الأوسط، الجنوبى، الشمالى، حوض الدرس، الشلوفة، جنيفة، فايد، رأس العش، فى كل موقع، سواء أكان صغيرًا أم كبيرًا، بدأت أرى الوجه الحقيقى لمصر، مصر كلها تركزت هنا، أبناؤها المقاتلون الذين جاءوا من مختلف القرى وشتى النجوع والكفور، وجوه عديدة تلتقى بها، خوذات القتال لا تخفى ملامحها، ربما يمر أصحابها بنا مرورًا عابرًا فى الطريق، ولا تدرك شيئًا عن حياتهم العامة أو الخاصة، العديد من هذه الوجوه تخفى وراء ملامحها مواقف تعارفنا على وصفها بأنها مواقف بطولية، والذين يصنعون البطولة فى الجبهة رجال ليست فيهم صفات خارقة إنهم تمامًا كسائر البشر، وهذا يجعلنا نتأمل فى مفهوم البطولة ذاته، إن تجربة المقاتل المصرى فى الجبهة، سواء خلال حرب الاستنزاف، أو حرب أكتوبر، تثبت أن الإنسان العادى المصرى إذا ما جابه ظروفًا خاصة، فإنه يتصرف بحيث يتبلور سلوكه فيما نسميه «البطولة»، لقد عايشت الكثيرين من المقاتلين، وخلف ملامح كل منهم كنت أبحث عن السر فى بطولة الإنسان المصرى، وما أكثر الوجوه التى التقيت بها، والتى من خلالها يتبلور لنا مفهوم البطولة الخاص جدا بالإنسان المصرى.

***

مصرى الملامح كذلك نبرات الصوت، فيه هذا الإيقاع الذى يميز لهجة أولاد البلد يوحى بما يمكن أن نسميه الجدعنة، ملابسه

العسكرية، ورتبته، لا تخفى أصله الريفى، فهو من بلقاس، أمه وعائلته تعيش فى الريف، منذ عدة سنوات يعيش جو الحرب، كان يحارب فى اليمن، وهناك مرت به تجارب عديدة، ومواقف قاسية، صحيح لحظة مرورها به ربما كانت تبدو صعبة، لكنه الآن عندما يستعيدها، يجد أنها تركت لديه خبرة لا يستهان بها، نحن الآن معه فى أحد المواقع، الليل يلفنا جميعًا، معنا مجموعة من المقاتلين عزت صاحب الوجه موضوع حديثنا، تلحظ العين فارقًا فى السن بينه وبينهم، فى الرتبة أيضًا، غير أن العلاقة الملحوظة التى تربطهم، تشدهم إلى بعض، تجسدها طريقة تعامله معهم، إصغاؤه إلى أحاديثهم، روح الدعابة المتبادلة بين الجميع، هذه الروح التى يعمقها الخطر المشترك والزمالة الطويلة لها أثرها المباشر خلال عملية القتال، فى أحد اشتباكات المدفعية، وكان اشتباكا عنيفا جدا، فوجئ المقاتل عزت بأسلاك تليفونات وحدته تتعطل، انقطع الاتصال بينه وبين القيادة العليا وبسرعة كان يتصرف بنفسه يتخذ قرارات القتال بنفسه بحيث لا يؤثر انقطاع الاتصال على سير القتال.

إنه يحتفظ فى جيبه بصورة لأمه، إنها سيدة ريفية، كان عالمها حدود بلقاس، وعندما نشبت الحرب بدأت الأمور الكبيرة العامة تدخل فى نسيج حياتها، خاصة عند مرابطة عزت فى جبهة القتال، بدأت تعرف أخبار الاشتباكات أولا بأول تتابعها، تحرص على سماع كل بيان عسكرى يصدر، تحفظ أسماء المواقع والأماكن فى الجبهة

لقد طلبت من ابنها أثناء نزوله الإجازات أن يعلمها كيف تفك الخط حتى تستطيع قراءة الصحف اليومية، حتى تتابع أخبار الصراع ضد العدو، وفعلا بدأ المقاتل عزت فى دروس لتعليمها مبادئ القراءة والكتابة، وبعد انتهاء إجازته وذهابه إلى الميدان كانت إحدى قريباته المدرسات تساعدها فى استكمال ما بدأه عزت، بدأت الأم تعرف كل ما يخص قضيتنا، ما موقف كيسنجر، ونيكسون، والدول التى تؤيد كفاحنا، والدول التى تساند إسرائيل، وبدأت خطاباتها تصل إلى عزت، تحدثه عن أخبارها، وأخبار إخوته، والبلد، وترجو له السلامة، وفى العيد أرسلت تقول له، كل سنة وأنت طيب ولكن العيد الكبير يوم انتصارك أنت وإخوتك.. وعند نزوله الإجازات تكون المعركة المحور الوحيد للحديث، يحدثهم عن زملائه، عن قصفات المدفعية الثقيلة التى يوجهها ضد مواقع العدو فى القطاع الجنوبى، عن غارات الطيران الذى يخرج إلى السماء محاولا إسكات مدافعه بعد أن تعجز مدفعية العدو فى الرد عليها.

***

كان طالبًا فى كلية التجارة، ترك الدراسة بعد يونيو ١٩٦٧، والتحق بالكلية الحربية، منذ بداية التحاقه سيطرت عليه رغبة قوية فى أن يذهب إلى جبهة القتال. كان يتلهف إلى التخرج حتى يمضى إلى جبهة القتال، ليرى، ليعيش الصدام المباشر ضد العدو، فى عام

١٩٦٩ تجسدت أمنيته أصبح مسئولا عن إحدى نقاط الملاحظة، أصبحت الانفجارات، والغارات جزءًا أساسيًا من حياته، اشترك فى جميع الاشتباكات التى دارت عام ١٩٧٠، فترات الهدوء تثير فى نفسه الملل، خلال الاشتباكات يمر الوقت بدون أن يشعر الإنسان، يصبح للزمن قانون خاص، تنكمش الساعات والدقائق والثوانى، المقاتل عاطف يراسل دائمًا والده المزارع من قويسنا، أفراد العائلة يتابعون أخباره من خلال زملائه الذين يجيئون فى الإجازات، فالمقاتل عاطف يقضى معظم إجازته فى الميدان، إن عائلة عاطف تتعرف إلى عائلات المقاتلين الآخرين، يتزاورون، يستفسرون عن بعضهم، قال عاطف بهدوء.. وأنا لا أكتب إلا الخطابات الموجهة إلى والدى فى قويسنا.. ليست هناك خطابات أخرى، لست مرتبطًا ارتباطًا عاطفيًا، أمور العاطفة كلها مؤجلة إلى ما بعد التحرير.. هذا أمر أصدرته إلى نفسى راغبًا أنفذه بدقة، فعشقى الأول والأخير موجه الآن إلى هذه الأرض.. إلى مصر..».

***

عدة رجال من مقاتلينا، جلست معهم لحظة نزول الليل، هذا الليل النائى من عام ١٩٧٠، رائحة عرقهم نفاذة، لمحت شعيرات نابتة فى لحى أحدهم، عيونهم تتطلع إلى الضفة الشرقية، يرتدون الثياب الكاكية يحوط أجسامهم معدات خاصة تكفل لهم القتال

لفترة طويلة خلف خطوط العدو، هناك لحظات معينة فى حياة الإنسان تبقى ثابتة فى الذهن طول العمر، لحظات لا تتجاوز الثوانى، ربما ينقضى شهر، شهور فى حياة الإنسان لا تترك أثرًا أو صورة أو ذكرى لكن رب ثوانى ضئيلة تحفر موقعها فى العقل العمر بأكمله، حتى الآن أذكر وجوههم وهم يتأهبون لدخول سيناء، والقيام بعملية نسف موقع ذخيرة فى الأعماق.. حوالى الثانية صباحًا.

الصمت عجيب، فوق كل شىء، هنا يختلف الليل إذا بدا قمر، خاصة إذا تأخر فى الشروق، الساعات الأولى يكون الظلام كثيفًا، وعندما يبدو يخف السواد، يبدو الليل مختلف الشخصية وكأنه عالم مختلف فى كوكب آخر غير كرتنا الأرضية.

عمومًا، القمر لم يشرق حتى الآن، غير أن وهجًا فى حجم اللهب المنبعث من السيجارة انبثقت فجأة عند الأفق المظلم، بدأ يتسع، كأنه جرح فى صدر الليل ارتعش، تصاعد، كلمات قليلة قالها المقاتل الذى يقف إلى جوارى فى مركز الملاحظة..

ـ نجحت العملية..

من خلال زجاج منظار الميدان بدأ اللهب قويًا مشتعلاً، مرتفعًا فى الفراغ..

ـ إنه على بعد حوالى عشرة كيلو مترات.

بالهمس دار الحوار بيننا، استمر الحريق يزداد توهجًا، بدأت العتمة تخف عند الشرق، السواد يتحول إلى لون رمادى، ببطء شديد يظهر القمر، طلع إلى السماء من ناحية الشرق نصف دائرة حمراء ضخمة، جاء من سيناء مختنقًا كأنه يستنجد بالرجال الذين توغلوا إلى الأعماق، يستعجلهم أن يفكوا إساره بسرعة زحف على وجه السماء، الآن، تلمع مياه القناة، تبدو بعض التفاصيل من صحراء سيناء، يكتسب الليل طابعًا آخر، كأن الحجارة، والمواقع تولد من جديد، من خلال الظلام، تفصح عن تفاصيلها.

فجأة .. دوى انفجار عميق جاء مفاجئًا، وضع حدًا للسكون، انتابت صدورنا راحة، مدفعيتنا تزمجر بعنف شديد، اللهب يتصاعد فى العمق، نتيجة عمل الرجال، الذين اقتحموا الليل ليقاتلوا العدو. وكانوا طلائع العبور الكبير..

* * *

فى القطاع الذى يعمل بإحدى الوحدات المتمركزة فيه، تسمع عنه، لا يقابلك جندى أو ضابط إلا ويحدثك عنه، المقاتل مرجان.

أسمر اللون، من النوبة جاء إلى الجبهة، من قرية اسمها (الديوان) تتبع الآن مركز كوم أمبو بعد التهجير، مرجان طيب القلب، مرح يخدم زملاءه بروح طيبة، يسهر على راحتهم لدرجة أنه يعرض نفسه كثيرًا للخطر من أجلهم يأكل بعد أن يطمئن أن زملاءه

أكلوا يذكرنا بجلسات الطعام فى العائلات المصرية الطيبة، عندما يلتف أفراد العائلة حول أطباق الطعام، كل منهم يحرص على أن يترك أكبر قدر ممكن لأخيه أو لصديقه، يذكرنى بالأم المصرية، إذ يأتى رب البيت بحلوى مثلا، يوزع على الأبناء نصيبهم، تأخذ هى نصيبها، وإذا بها تبدأ توزيعه من جديد على أبنائها، يذكرنى بكلمات أب مصرى كادح، تحدثت معه مرة، أشار إلى حذائه البالى، قال إنه يرتدى أحسن الثياب، ولا بد أن يوفر لابنه كل متطلباته، أما هو فمستعد لتحمل أى صعاب.

مرجان يعمل ميكانيكيًا، تزوج أثناء وجوده فى القوات المسلحة، تنتظره زوجته فى البلده، يتبادلان الخطابات، تحدثه زوجته عن همومها الخاصة، عن أخبار القرية، عن الأخبار العامة، إن أهالى القرية النوبية، لا حديث لهم فى مجلسهم إلا عن الحرب، وعندما ينزل إجازة يتجمعون حوله، ويحاولون معرفة الصورة كاملة، يحدثهم مرجان عن العلاقة الجديدة التى نمت داخل الجيش، العلاقة بين الضابط والجندى، قبل دخول الجيش كان يسمع عن المعاملة القاسية والقسوة إلى غير هذا، لكن ما رآه مخالف تمامًا، لو عنده أية مشكلة بسيطة فإنه يتجه إلى القائد فورًا بلا وسيط، أى طلب له ينظر إليه بعين العناية، لو قائد الفصيلة أراد أن ينفذ شيئًا ما، فإنه يجمع جنوده ليناقش معهم هذا الشيء، والحقيقة أن العلاقة بين الجندى المصرى والضابط، من أهم ملامح التغيير فى قواتنا

المسلحة بعد يونيو ١٩٦٧، فى حديث قائد الفصيلة التى ينتمى إليها مرجان ترى فى لهجته الإعجاب والحب، لقد عبر مرجان إلى سيناء مرات، إنه أول العابرين دائمًا، أصبح العبور هواية له فى هذا الوقت المبكر من الصدام ضد العدو، يقول مرجان:

- أتمنى وأنا فوق أرض سيناء ألا أتركها أبدًا، أن أبقى هناك حتى يخرج العدو..

قلت:

يتحمل أى صعاب.

ويبدو وجهه رقيقًا، دافئًا، إذ يبتسم قائلا..

- شىء من هذا..

وقد حدث..

* * *

الحياة مستمرة

بدأ الليل فى النزول..

والليل هنا لا مثيل له فى أى مكان آخر، بمجرد أن يغوص قرص الشمس وراء الأفق، يزحف اللون الرمادى إلى الفراغ، ثم يبدأ الليل، لا ينزل من السماء إنما يطلع من الأرض، من البيوت المهجورة المدمرة بالصواريخ وقنابل الألف رطل، يجىء الليل من البحر، من خليج السويس من جبل عتاقة المهيب الذى يحضن المدينة، يتزايد الظلام تلمح فى السماء نجومًا عددها يتزايد وكلما دققت فى السماء تكتشف أعدادًا أكثر، تلمح نقطة مضيئة تتحرك بطيئة، نجم متحرك يمشى من الشرق إلى الغرب، إنه أحد الأقمار الصناعية التى يزدحم بها الفضاء الخارجى منذ المغيب والصمت لا وجود له.

انفجار نحاسى يدوى فى الفضاء، وبعد لحظات تسمع انفجارًا مكتومًا، على الضفة الأخرى؛ حيث العدو، وكأنه صدى للانفجار

الأول، إنها مدفعيتنا تضرب تحركات العدو.. ضربًا مركزًا وعنيفًا، مدفعية العدو مرتبكة، يبدو هذا واضحًا من طريقة الرد..

تساءل عم حسن بائع الصحف:

ـ هى النجوم كثيرة النهارده ليه؟

ضحك الواقفون أمام كشك الصحف، الضرب مستمر، وأضواء النيون تحيط بالكشك، وبعض شباب السويس يتبادلون الحديث، إن تساؤل عم حسن ليس سخرية فى حقيقته، إنه يعنى صفاء السماء من الغيوم وهذا يعنى صلاحية الجو لعمل الطيران إذن هناك احتمال لمجىء الطيران المعادى، خاصة أن مدفعية العدو لا تستطيع الرد على قصف مدفعيتنا العنيف المركز.. لكن.. من هو عم حسن؟.

من هم الشبان الذين يعيشون فى مدينة السويس؟

من هن السيدات اللائى يعشن فى المدينة المحاربة؟

قبل أن نقترب أكثر منهم، سكت الواقفون لحظة وفجأة قال نعيم حافظ أحد أعضاء المقاومة الشعبية، رجل أسمر، طويل، فيه ملامح المدينة وتاريخها..

قال باختصار..

ـ فيه طيران..

وبعدها بثوان بدأت صفارات الإنذار، لقد أحسوا بطائرات العدو قبل اقترابها..

عم حسن جاء مع أهله إلى السويس من السودان على وجه التحدى من شندى.. مات أبوه هناك وأيضًا أمه. وعمل بحارًا على إحدى السفن.. لف العالم، عرف الكثير من التجارب، ثم عاد إلى السويس، استقر فيها، كسب فيها الكثير، عرف لياليها والسهر حتى الفجر، والحنة السويسى وعندما جاء العدو إلى الضفة الأخرى، قذف نساء المدينة وأطفالها بالصواريخ والنابالم، بدأ تهجير أهلها.

ورفض عم حسن بائع الصحف أن يهاجر، بقى فى المدينة، يرافق بيوتها وشوارعها فى أيام شدتها، يتمنى أن يموت فيها، يبيع الصحف للجنود، العلاقة بينهم وبينه فيها روح العائلة.

الليلة.. يحتفل عم حسن بشفائه من عملية جراحية، كثير من شباب السويس يجىء إلى منزله، الجميع فى انتظار غزالى، وأولاد الأرض، سيقيمون بإحياء الحفل، الطائرات بدأت تلقى (الفليزر) فوق المدينة، أضواء وهاجة تحرق ظلام الليل، أصواتها سكاكين سيور حادة تلوث السماء أصغى نعيم حافظ.. إنه يعرف ما تعنيه تمامًا.. بدون أن يراه.. انقضاض الطيار فى زاوية حادة، ثم فى خط مستقيم..

ـ أهه.. رمى تلقيحه..

التلقيحة هى حمولة الطائرة عندما تنفجر، الطائرات المعادية تحاول ضرب مواقعنا لكنها تفشل عادة، بسبب كثافة النيران

الأرضية، وتمويه مواقعنا، عندئذ يضطر الطيار إلى إلقاء حمولته، وغالبًا لا تصيب الهدف المقصود، عندئذ تنزل فوق بيت قديم، فى الخلاء، فى الشارع رأيت بيوتًا قديمًا مضروبة بقنابل الألف رطل.. الأسقف الخرسانية كالورق المقوى، ينصهر الحديد لكن أى شىء تضمه بيوت المدينة المهجورة حتى تقصف بقنابل الألف رطل؟

لا شىء.. الا يكشف هذا عن فشل واضطراب غارات الطيران الإسرائيلى، وفى أحد شوارع المدينة، رأيت حفرة ضخمة، كأنها قرحة فى الأسفلت، نخرت الأرض حتى ظهرت المياه، الطريف أن ثمة رجلاً كان يجلس يغسل يديه فى الحفرة التى أحدثتها القنبلة. وبالطبع فإن قنبلة الألف أو الألفى رطل هذه تتكلف كثيرًا، لكن ما الذى دمرته؟ لا شىء إلا الأسفلت، ولا بد أن إسرائيل تجد قيمة عسكرية كبيرة فى الأسفلت حتى توجه إليه كل هذا الجهد..

حلوانى ومطعم..

اشرب كوكاكولا.. بيرة..

صاحبة المحل..

نبوية محمد الجلاد..

نبوية فتاة، العمر تسعة عشر عامًا. المحل ما زال يعمل، أسرة نبوية جميعًا مهجرة أبوها توفى منذ أعوام، أمها وأخوتها فى منيا

القمح، رفضت نبوية الهجرة وبقيت فى السويس، تدير المحل، تعد الحلوى، وتبيع زجاجات المياه الغازية، يشتريها أهالى المدينة الباقون وجنودنا العابرون، ما تكسبه ترسل منه إلى عائلتها إلى جانب إعانة التهجير، تصافح نبوية رقيقة الوجه فكأنك تصافح رجلاً عركته الأيام والسنون، ولا تزال تقف فى المدينة المحاربة تكافح، تساعد على استمرار الحياة، بجرأة..

هذا هو الوجه النسائى الأول فى السويس..

أما الوجه الثانى.. فيقتضى منا أن نعود إلى حفل عم حسن.

- أنا عايدة، زوجته..

كانت تعمل ممرضة، بقيت بجوار زوجها، أو بقى هو بجوارها كما يقول، ترى أهلها فى بنى سويف كل شهرين مرة، إنها ترعى شئون عم حسن طبعًا، لكنها تقوم بما هو أهم بكثير، لقد حولت شقتها الصغيرة إلى مقر للإسعاف، لا تعالج فيها المصابين فقط، وإنما تدرب فيه الرجال على كيفية الإسعاف، وطرق إعطاء الحقن تبيع الصحف مع زوجها فى الكشك ويناديها الشباب هنا..

- يا ماما..

مع أنها لم تتجاوز الثلاثين إلا بأعوام قليلة، ويطلقون عليها (أم السويس) إذ أنها الوجه النسائى الوحيد الذى تراه باستمرار فى

المدينة، إلى جانب نبوية، ربما تبدو حياتها غريبة، فالمعتاد أن السيدة تزور جاراتها، لها صديقات تثرثر معهن يتحدثن عن الأطفال.. إذن كيف تقضى عايدة وقتها؟؟ أيضًا نبوية، الحقيقة أن وقتهما ضيق جدًا هناك مشاغل البيت ثم البيع والمحل، وبالنسبة عايدة فأعمال الإسعاف واشتراكها فى المقاومة الشعبية لا يترك لها دقيقة واحدة من الفراغ.

فى شارع طويل، لا تسمع فيه إلا اصطدام ضلف النوافذ بالجدران وصرير أبواب مفتوحة، شارع كل بيوته مدمرة، لا يسكن إلا هو.. رجل عجوز فقير، نجار.. إنه فتحى أحمد محمد.. هاجر وعاد إلى السويس.

- دمى ما استريحش بعيد عن هنا قلت أرجع.

- إنه يقيم فى نفس مسكنه، البيت من أعلى مشوه مضروب، أكوام من الحجارة، وسط الأنقاض ترتعش الحياة التى ضجت بها هذه البيوت ترى آبار العائلات، لعبة أطفال، عروس تحملق بعينين ثابتتين مقطوعة الذراع، كأنها تتساءل من سر الوحشية والقسوة ولا إنسانية العدو الذى حرمها من صاحبتها الآدمية، ترى فرشاة حلاقة، قطعة من مرآة تثور آلاف الخواطر فى الذهن، ترى من الذى انطبعت صورته فى المرآة؟ من الذى حلق بهذه الفرشاة، كم من الضحكات امتلأ بها البيت؟ فى بيت طارت جدرانه، لمحت فى غرفة

علوية نجفة كاملة، ثمينة مدلاة من السقف فى الفراغ.. وسط هذا يتجول رجل عجوز يرتدى جلبابًا أبيض، إنه أيوب أحمد، مكوجى من أهالى السويس، انضم إلى المقاومة الشعبية، يطوف اليوم كله على البيوت، يحرس الأنقاض، إنه يحرس نفس المنطقة ومازال دكانه يحمل بقايا لافتة تعلن عنه.. إن معيشة الرجال هنا فرضت سلوكًا جديدًا عليهم. أصبح الرجال يجيدون الطبخ، وكما يقول نعيم حافظ إنه عندما أعد كوب الشاى لنفسه أول مرة، لم يكن يتصور أبدًا أن كوب الشاى يستغرق كل هذه الخطوات، غسيل الأكواب، ثم غليان المياه، ثم غسيل الأكواب من جديد، فما بالك بالطبخ، أسرة نعيم حافظ مهجرة فى الفيوم، يقضى هنا خمسة عشر يومًا، وهناك مدة مثلها غير أنه هنا قلبه على الأولاد، وعندما يسافر يصبح قلبه مع المدينة يتابع البلاغات العسكرية، هل حدث ضرب فى السويس، يتساءل هناك من الذى أصيب عندما يعود يتأمل بعين فاحصة. يحاول أن يكتشف آثار الأحداث التى وقعت أثناء غيابه، فى المبانى، فى الناس، إنه هنا فى السويس يشعر براحة نفسية أكثر، إنه ينام فى مسكنه، يحتفظ بالثلاجة فأمله كبير جدًا فى اقتراب يوم النصر عودة أطفاله إلى منزله إلى بيته، والآن أصبحت ثلاجته ملكًا للبلد كلها يستعملها أصدقاؤه لشبان. يحتفظون فيها بالطعام، ينامون عنده، لقد أصبح نعيم حافظ خبيرًا بالشئون المنزلية، علمته الحرب

هذا.. وها هو يعد الأرز كأفضل ما يكون ليأكل المدعوون فى حفل عم حسن.

****

مال على الكابتن غزالى.. عضو المقاومة الشعبية وقائد فرقة أولاد الأرض.. الغناء مستمر، جمع كبير فى صالة البيت الداخلية، لا أضواء تتسرب إلى الخارج، الغناء يتبعه تصفيق قوى يحدث نغمًا إيقاعًا معينًا، غزالى يتحدث والتصفيق مستمر، إذا تجمع السويسية فى حفل فإنهم يصفقون بقوة، وهذا معناه أن الجالسين هنا رجال أقوياء أشداء.

غزالى مستمر فى شرحه للأصول الفلكلورية لأغانى فرقته، عايدة امرأة عم حسين تتردد بين المطبخ والصالة، عند الباب وقف عدد من جنودنا، عم حسن يجلس مختالاً فى الجلباب الأبيض..

وفى الخارج..

تدوى انفجارات، مدفعيتنا لا تزال تقصف مواقع العدو، قصف عنيف مركز، قلب جوف الليل وصمته، التصفيق، والغناء غطى تمامًا على أصوات المدافع والدبابات.. وهدير الطائرات المعادية، ربما ثار قلق فى النفس، آه لو كفوا قليلاً عن الغناءحتى يتبين الإنسان حجم المعركة فى الخارج..

لكن الغناء لا يتوقف.

بل بدأ أعضاء الفرقة فى الرقص، كل فرد منهم فرقة بأكله، خاصة إبراهيم عامل البترول وعازف السمسمية لذى يتقن الرقص التعبيرى الصامت. وأتساءل، لماذا لا تحتضن أجهزة الثقافة الرسمية هذا الفلكلور الغنى الخصب، انتبه فجأة إلى المعركة المحتدمة فى الخارج.. بدأ العدو فى استخدام الصواريخ ضد المدينة نفسها بعد أن عجز عن مواجهة مدفعيتنا.

لكن الغناء الشجى القوى لم يتوقف أبدًا.

لقد انصهر أهالى السويس فى المعركة.

أصبحت خبراتهم القتالية بالغة الدقة، بسير المعارك، نوعية المدافع عندما بدأ قصف مدفعيتنا لطوابير العدو، راح الرجال يقولون.

- الله.. اضرب يا عنتر.

- لا دامش عنتر.. دا الشيخ طه.

- يا جدع اسكت أنت حتلخبط الدنيا ليه.. باقول دا عنتر.

لكل مدفع اسم، يعرفون مدفعيتنا تمامًا، يميزون طلقات العدو، يحسون بطلوع الطيران المعادى وهو مازال محلقًا فوق سيناء، وفى الليالى التى تعبر فيها دورياتنا المقاتلة القناة، يقفون قرب شاطئ

الخليج يتابعون سير المعركة يرون قصف المدفعية المصرية أولاً، عندما تكف، وتبدأ الانفجارات هناك، يقولون:

- الرجالة وصلوا واشتغلوا..

ويبدأ العدو فى تحريك دباباته من عيون موسى، لمهاجمة رجالنا، ولإنقاذ قواته.. يسمع الأهالى صوت الدبابات، بم بم بم، وهى تتحرك.. تتسارع أنفاسهم يصغون.. تبدأ مدفعيتنا فى ضرب قوات العدو المدرعة.

- الدبابات بتاعتهم سكتت.. أهه راجعة تانى.

عندما يسود الصمت يعرفون أن رجالنا عادوا سالمين، إنهم يتابعون تفاصيل العملية وكأن كل فرد فيهم عبر مع الدورية ثم عاد، فى إحدى الليالى، خلال الصمت، أطلق أحد مدافعنا طلقة إزعاج على مواقع العدو وبعد وقت غير قصير جاءت طلقة معادية.. أصغى الشاب سمير ندا.

- أهو عنتر دلوقتى حيرد.

وسمير ندا من القاهرة، جاء إلى السويس يحمل جهازًا تسجيليًا ينتقل إلى أماكن المعارك، يسجل غارات الطيران المعادية كوثائق تاريخية، أصغى سمير، غير أن عنتر تأخر قليلاً فى الرد عندئذ راح يتحرك بقلق، بعصبية.

ـ جرى لك إيه.. ما بتردش له يا عنتر..

ياليله مش فايته. وفجأة.. دوت طلقة مدفع، ولم تكن طلقة واحدة، لكنها ضرب مركز.. عنيف.. وصاح سمير ندا معانقًا من حوله.

ـ الحمد للّه.. الحمد للّه.. عنتر رد.. عنتر رد..

انتهت حفلة عم حسن.

انصرف الرجال، نادى البعض فى الظلام، لمعت أضواء المصابيح اليدوية، لا تزال الانفجارات تدوى، المدينة كلها تقف فى مواجهة العدو، لا يسكنها رجال لا يعرفون بعضهم، أو عائلات عديدة.

السويس كلها عائلة واحدة، متماسكة، إنسانية، طيبة،.. تواجه أشرس أعداء مصر.

* * *

فى يناير ١٩٥٧، حزم الشاب المصرى «حمدى عقده» ابن مدينة السويس حقائبه، وركب الباخرة فى طريقه إلى ألمانيا. لم تكن الرحلة الأولى بالنسبة له، لقد سافر عدة مرات من قبل.

لكن هذه المرة تختلف فهو لن يعود بعد شهور أو أسابيع، إنه يتجه إلى ألمانيا ليستكمل دراسته «الفنية» التى بدأها فى كلية الفنون بجامعة عين شمس. إن أسرته تلك الأسرة المصرية [illegible] من مدينة

السويس أرسلته إلى أوروبا. ما المانع أن يتم دراسته هناك. وإمكانياتها المادية تسمح بهذا.

وفعلاً نزل حمدى إلى الأرض الألمانية (بلاد الراين) وحتى مايو ١٩٥٨ كان قد أتقن اللغة الألمانية تمامًا. ومن قبل كان يجيد الإنجليزية والفرنسية، ويتحدثهما بطلاقة. التحق بكلية الكيمياء فى مايو ١٩٥٨ فى تشكيل اللجنة التأسيسية لاتحاد الطلاب العرب بألمانيا الغربية. ثم انتخب رئيسًا للاتحاد حتى عام ١٩٦٠. ونتيجة لنشاطه الواسع. وصلاته الوثيقة انتخب رئيسًا لاتحاد طلاب أوروبا واستمر فيه حتى يونيو ١٩٦٧ يونيو ١٩٦٧ كان نقطة تحول فى حياته.

الوطن فى خطر. والوطن بالنسبة لحمدى ليس معنى مجردًا. لقد ارتبط به ارتباطًا وثيقًا. عناصره مادية ومعنوية. الوطن بالنسبة له. طفولته المنقضية فى مدينة السويس. وعلاقته مع أهالى المدينة الطيبين. ومقاسمتهم أفراحهم. وآلامهم. ومعايشة تطلعاتهم البسيطة. وجهدهم الخارق فى البحث عن لقمة الرزق. إن كل لحظة قضاها فى المدينة. تشكل صورة فى وجدانه. مياه القناة، السفن، البمبوطية، رحيل القطارات الأمهات المصريات المتشحات بالسواد دائمًا، وحمدى يعرف تاريخ بلاده تمامًا. إنه لم يحصر نفسه فى تخصص ضيق، إنه قارئ ممتاز، وبالذات لتاريخ مصر. السويس جزء غال من مصر ومصر بالنسبة له ماض وحاضر ومستقبل إن

السنين التى قضاها فى أوروبا لم تضعف هذا الإحساس قط، أبدًا، بل زادته صلابة ورسوخًا كان فى كل سنة يجىء إلى السويس، يقضى شهرًا بين ذويه، ثم يعود من جديد ليستكمل دراسته. وفى أغسطس١٩٦٩ فى إحدى إجازاته. تزوج من قريبة له. عقد قرانه فى السويس. كان باستطاعته الاقتران بأية فتاة أجنبية. شقراء الشعر. زرقاء العينين لكنه أبى أن يقضى عمره لا يستمع إلا للهجة غريبة عن لهجة أهله، أن ينجب أطفالاً يجهلون لغة أبيهم. وموطنه وأصله. بعد هذه السنين كلها. عاد ليقترن بإحدى قريباته السويسيات ويسافر مرة أخرى إلى أوروبا ليستكمل دراسته.

يونيو ١٩٦٧.

قطع دراسته. فى ليالى الألم والمعاناة، اتخذ قرارًا. مكانه الطبيعى الآن. هناك بين أهله فى مصر. مصر. المشدود إليها برباط وثيق. مصر الآن تعانى وبقاؤه هو فى أوروبا يستمتع بمظاهر الحضارة الأوروبية، بمباهجها، وأهله يحوم فوقهم الخطر. أمر فيه أنانية تأباها نفسه. مصر جريحة. ويجب أن يمضى إليها. لا أن يرحل عنها كما فعل الكثير من الشبان الذين يضعف عندهم الحس بالانتماء لمصر فيصبح السفر إلى الخارج. والزواج بأجنبية والهجرة أمنية. لا تدانيها أية أمنية أخرى.

أبدًا..

لم يكن حمدى من هؤلاء.. عاد إلى الوطن.

لقد جاء حمدى إلى قرية الجنايين. والجنايين تحاذى قناة السويس. والفلاحون هنا رفضوا أن يغادروا الأرض. رفضوا التهجير. بقوا يزرعونها فى ظروف الحرب. ومعهم عاش حمدى، وحمدى ليس غريبًا عنهم لأن أسرته معروفة. ووالده تربطه علاقات عديدة بأهالى القرية. واستأجر حمدى أرضًا زراعية. بدأ يعمل فيها.

- لم أمارس الزراعة من قبل. وفى البداية لم أكن أعرف شكل التقاوى. أقول فين البرسيم. يقولون. فى يدك يا حمدى أفندى.

نفس الظروف التى يعيشها الرجال. بدأ حمدى فى زراعة الأرض. عاش هنا. كانت الحرائق تنشب فى الزرع. فيصحو حمدى فى الليل. يسرع مع الرجال. يقفون صفًا طويلاً يبدأ بجوار قناة الماء أو الترعة، ويبدأ أولهم يملأ الدلو. ويناوله بسرعة لمن يجاوره ثم الثانى، الثالث، وهكذا. حتى يصل إلى آخر رجل فى الصف القريب من مكان النيران. عمل يتم فى سرعة لحظية خاطفة. فى مرة أخرى. قام حمدى بإشعال خط مستقيم من الحشائش بحيث يمكن له أن يتحكم فى مسار النيران. وبالتالى إطفائها.

***

فى الجنايين يعيش فلاحون مصريون يعملون، يكدحون. وكأية

قرية مصرية يعانى أبناؤها من مشكلة الأمية، نسبة كبيرة من الرجال يجهلون القراءة تماما لم يتردد حمدى فى مواجهة المشكلة أدرك الواجب الذى يجب على المثقف القيام به تجاه أهله ومواطنيه. جمع أبناء القرية الأميين.

وفى فترة قصيرة تكون فعلاً فصل كامل عدد تلاميذه أربعة وأربعون. تتراوح أعمارهم بين الثلاثين سنة وتسع سنوات. أنشأ هذا الفصل فى يوليو ١٩٧٠ اشترى حمدى الكتب الدراسية الأولى. وفعلاً استطاع حتى نهاية ١٩٧٠. محو أمية التلاميذ المنتسبين إلى الفصل. بحيث أصبحوا يقرءون الصحف بسهولة. وعندما سافر بعضهم إلى القرى التى يعيش فيها بقية الأقارب. أرسلوا إليه خطابات.

- كنت سعيدًا جدًا وأنا أقرأ هذه الخطابات. كنت أرى فيها معانى عديدة غير مكتوبة.. إلى جانب هذا اشترك مع طبيب القرية. والمشرف الزراعى. فى مشروعات ذاتية استهدفت تقسيم القرية إلى مناطق صحية. الكشف على مياه الشرب أولاً بأول. هذا المجهود الذى يشارك فيه حمدى مع شباب القرية. ومثقفيها. له دور مهم فى الفترة الحالية التى تعيشها القرية الملاصقة تمامًا لشاطئ قناة السويس.

* * *

ما قام به حمدى ليس غريبًا أو شاذًا. بل هو السلوك الطبيعى

جدًا لأى إنسان مصرى. ترقد وتتمدد فى شرايين دمه مصر. وحب مصر يمضى إليها معايشًا لمعاناتها. لا يهاجر منها أو يبتعد عنها. إنما يلاقى ما تلاقى. وإذا كان (حمدى) نموذجًا للإنسان المثقف الذى يبدو فيه هذا السلوك الحضارى.

ـ الحضارة ليست مظاهر. ولكنها أولاً وأخيرًا سلوك.

فإن كل إنسان يعيش فى قرية الجناين. فى ريف السويس. يجسد هذا المعنى فى نفس القرية نجد (أم ضيف اللّه) امرأة كأى أم مصرية. لها ثلاث بنات وشابان. زوجها يقيم فى مصر، متزوج بعيد عنها لهذا لا تنال مليمًا واحدًا من إعانة الإقامة التى تصرفها المحافظة للمهجرين، أو الفلاحين المقيمين فى المنطقة. (أم ضيف اللّه) لا بطاقة شخصية أو عائلية لديها. غير أنها لم تغادر الأرض يومًا. تزرع الأرض بيديها. ترويها.

ـ ما وديتش عيالى عند أبوهم. كلهم معاى هنا. فيه حد بيطيق أولاد حد. كلهم كانوا معاى وقت الضرب وغير الضرب. الموت من عند ربنا.

فى حديثها صلابة رجال عديدين صهرهم الدهر. فى ملامحها رسوخ الأشجار العتيقة فى أرضنا. أيام الاشتباكات حفرت بأيديها خندقًا للأسرة الصغيرة. خندق حصين. كانوا ينزلون فيه لحظات الضرب والغارات.

ـ وعملت باب للخندق عشان ما فيش غريب يجرحنا.

بين الحقول. نرى (أم ضيف الله) تمضى. الفأس فوق كتفها. منذ سنوات تعايش هذه الأرض. لم تنزل القاهرة أبدًا. تجمع المحصول تسلمه إلى الجمعية. الثمار النابتة هنا لها مذاق آخر. ثمار مروية بالدم. بأصدق أشكال المعاناة. وأسمع حمدى يقول:

ـ شعب فيه أمثال أم (ضيف الله) لا أظن أنه يهزم أبدًا.. أبدًا.

***

عرفتها كقصيدة شعر شفافة، صيغت معانيها بعذوبة، بدفء، تواجه زرقة البحر الأبيض المتوسط، تقف ملاصقة لمياهه، تستقبل السفن التى تعبره، تفيض حركة.. تدب الحيوية فى أوصالها الممتدة بالحى العربى.. شارع الحميدى، شارع كسرى، المطاعم الصغيرة، السمك ورائحته تملأ الهواء.. مقاهى الصيادين الصغيرة والدخان والشاى، والحلبة، والكركديه، واجهات البيوت الخشبية، والغسيل المنشور، سمعتها من خلال صفارات السفن ومراكب المبوطية الصغيرة، ومعدية بور فؤاد، ومبنى هيئة قناة السويس، التصقت فى ذاكرتى الأولى من معالم العمر الأول عندما استمعت إلى اسمها من خلال المذياع وأفواه الناس، قلعة للنضال، صخرة صامدة فى مواجهة العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦.

هكذا.. عرفت بور سعيد.

والآن. أمضى إليها. أمضى والبحر الأبيض يحاذى الطريق

بأمواجه الزبد الأبيض. ترى، كيف ألقى بور سعيد الآن؟.

فى السويس، فى الإسماعيلية تتجسد الحرب فى صورة مغايرة. مخالفة، لما نراه أمامنا وحولنا. هنا فى السويس، لا يوجد بيت إلا وأدركته الشظايا، شظايا حادة صغيرة رفيعة، تترك آثارًا خفيفة كأنه نقر مخالب مجهولة، غامضة، شظايا أخرى ضخمة ألقت الجدران. هدمت الأسقف، ضيعت النوافذ. كل مساحة من الأسفلت تضم حفرة، فى الإسماعيلية نفس الصورة تقريبًا.

أما هنا فى بور سعيد.. فدمار الحرب يتجسد فى صورة أخرى.

الطرقات خالية تمامًا. الفراغ لا تصدمه مادة النخيل المهذب، صفوف النخيل فى الحى الإفرنجى تقف، يتمايل سعفها فى الهواء، لكن الحشائش طالت، زحفت فوق بلاط الأرصفة، وكأن الحشائش نبتت من البلاط، تطلع الخضرة من الأسفلت، لا أيدى تهذب الحشائش فاستطالت وزحفت، نفس المنظر نراه فى بور فؤاد وكأنها لحية أهملت حلاقتها إلى جانب هذا فالشوارع نظيفة تمامًا. يلمع الأسفلت وكأنه ماء البحر.

إن عمال النظافة التابعين للمحافظة، يقدمون فى نفس مواعيد عملهم الرسمية نفس الطاقة، ومن هنا تحتفظ المدينة بوجهها الرائق، عليه مسحة من آثار الحرب، عميقة تنم عن معاناة وصمود رائع، نوافذ البيوت مغلقة. وفى الليل تخلو الطرقات من المارة فيما

عدا عربات القوات المسلحة تمرق بسرعة، وجنود يرتدون الخوذات يمضون فى مجموعات، أسلحتهم بين أيديهم. حديثهم يعلو حينًا وينخفض حينًا آخر، حماة المدينة والبلاد، البيوت كلها مظلمة، باب كل عمارة مضموم بسلسلة حديدية مغلقة بقفل صغير، ومصابيح الشوارع مضاءة فى الهدوء.

شارع الحميدى، المقاهى الصغيرة، الأهالى يدخنون ويشربون الشاى والحلبة والقهوة والبورى، الشارع ضيق، به حياة، حركة جنود قواتنا المسلحة يعبرون الطريق. يجلسون إلى المقاهى، الترحيب بهم يبدو فى العيون، فى مشاعر الوفاء التى يبديها الأهالى، قبل بدء أول مرحلة للتهجير كانت المدينة تزخر بسكانها، وسكان بور سعيد (كأى منطقة أخرى فى مصر) مرتبطون بمدينتهم إلى حد الالتصاق التام. بماضى المدينة وحاضرها، ومبانيها، وفى الشهور الأولى بعد عام ١٩٦٧، لم يكن التهجير قد بدأ بعد، كانت العلاقة بين الأهالى والمقاتلين هنا حيوية ورمز عظيم للوحدة بين صفوف الشعب المصرى كانت بعض المواقع بين بيوت المدينة، وكان الأهالى يغسلون ثياب المقاتلين. ويرسلون إليهم أطباق السمك المشوى والأرز خاصة فى المناسبات والأعياد وفى أحدى مواقع المدفعية القريبة من بور سعيد، فى أوقات الاشتباكات كان الشبان والأطفال الصغار يقفون بجوار المدافع. يحملون الدانات من الصناديق، يمسحون الشحم عنها، يناولونها إلى الجنود، وكما قال أحد المقاتلين (لم نشعر أبدًا

أننا فى غربة عن أهالينا). إن مشاعر الأهالى البور سعيديين نفت أى إحساس بالغربة قد يحل فى أية لحظة بمقاتلينا.

وعند بداية أول مراحل التهجير، رأيت بعينى طوابير الأهالى، يقفون بالقرب من السيارات المعدة للرحيل، كانوا يبكون، ينحنون، شيوخًا وشبانًا رجالاً ونساءً، ينحنون فوق أسفلت الطريق، يقبلون الأرض الغالية التى شهدت الكثير من نضال هذا الوطن، ولكن للحرب ضرورة. بل ضرورات كثيرة وأهمها تهجير الأهالى من مدن القناة، حتى لا يفرغ فيهم العدو عجزه وغضبه، عندما كان يعجز عن إصابة مدفعيتنا فيصب غضبه على مدن القناة.

ـ وإصابة حى من الأحياء المدنية هنا لا يحتاج إلى أية مهارة قتالية على الإطلاق.. مجرد تصويب المدافع فى اتجاه المدينة يحقق خسائر بين المدنيين.. لهذا كان لا بد من تهجير الأهالى حتى تتفرغ تمامًا لردع العدو ردعًا تامًا.

هذا ما قاله أحد المقاتلين فى مايو عام ١٩٦٩.

***

الغريب هنا يبدو بسرعة..

حتى لو لجأت إلى أحد مقاهى شارع الحميدى وهو الشارع

المزدحم نسبيًا الآن، فى مدن تعيش ظروف الحرب يتم التعارف بسرعة بين القادمين إليها. والمقيمين فيها.

- أنا رفاعى حمادة.. بهيئة قناة السويس.

رفاعى أحد العاملين بالهيئة.. باللجنة النقابية للعاملين بهيئة قناة السويس، بمحافظة بور سعيد ومعه نبدأ رحلة من رحلاتنا فى المدينة فى أحد المبانى الذى يبدو مظهره هادئًا جدًا من الخارج، لا يكشف عما بداخله فى حى كل مبانيه قد خلت من سكانها تقريبًا، فى الداخل تترامى إلى آذاننا ضجة موسيقى وغناء، نحن الآن مع (شباب النصر)، فرقة للغناء تكونت من العاملين بهيئة قناة السويس والمقيمون بالمدينة، حتى بعد التهجير فى أغانيهم تنعكس كل ظروف البلدة المناضلة، إصرار على المضى فى المعركة، حزن رقيق على ماضى المدينة الجميلة، حزن لا يثبط الهمم، إنما يشحنها بحقد رهيب على العدو الذى كان سببًا فى تهجير الأهالى، أيضًا تمتزج هذه الأغانى بالفلكلور البور سعيدى الأصيل، ومن هنا تمتاز أغانى هذه الفرقة تميزًا واضحًا، ونتذكر على الفور فرقة مماثلة على الطرف الآخر من قناة السويس، فى المدينة المناضلة (السويس)، فرقة أولاد الأرض.

****

أفراد فرقة (شباب النصر) لم يكن لهم علاقة مباشرة بالفن قبل

١٩٦٧، إنما انضموا جميعًا إلى هذا الفريق مدفوعين بالظروف التى تمر بها البلاد، من كامل عبد العزيز الشاعر بالفرقة نستمع إلى شعر رقيق يمتزج فيه الإصرار بالحنين بالتحدى بالحزن، شعر عامية صادق أصيل، كتب من خلال معاناة حقيقية، سطر بعبير الدم ورائحة البارود، شعر عامية لم يعرف طريقه بعد إلى الإذاعة والتليفزيون ما نسمعه من كامل عبد العزيز عيد فى بور سعيد من كامل عيد فى السويس شاعر أولاد الأرض، من كابتن غزالى، من غيرهم من المقاتلين فى وحدات قواتنا المسلحة.

إنها ظاهرة جديدة تضيف إلى الفن المصرى وتثريه، حيث يولد فن جديد من المعركة، صادق فى التعبير عنها آن الأغانى التى تؤديها فرقة (شباب النصر). ورقصات البمبوطى (كفته) أحد أفرادها. تؤدى دورًا مهمًا فى الترفيه عن وحدات قواتنا المسلحة التى تتمركز فى المنطقة المحيطة أيضًا بالأهالى، الذين يقومون بالمدينة. وتلقى أناشيد الفرقة ورقصاتها تفاعلاً كبيرًا من الجمهور هنا. هذا الجمهور الذى يعيش ظروف الحرب.

(أحمد رفاعى) قائد الفرقة، من أهالى بور سعيد الذين يعشقون مدينتهم لقد ارتبطت أعمارهم بالمدينة برباط وثيق، و (أحمد رفاعى) لم يغادر المدينة أبدًا، لم يفارقها فى أصعب ظروفها، تمامًا كبقية الأهالى، فى عام ١٩٥٦، كان شقيقه جنديًا فى البوليس، يقف

حارسًا على باب القنصلية الإيطالية، وعندما بدأ الهجوم الثلاثى، وقف مدافعًا عن السفارة، وخرج القنصل الإيطالى يطلب منه الدخول إلى مبنى السفارة، للاحتماء به لكن الجندى المصرى الشجاع رفض، وظل يؤدى واجبه حتى استشهد، إن المدينة التى استشهد فيها الشقيق الغالى لم يغادرها رفاعى أبدًا، بقى فيها، حتى رأى هذه اللحظة مع أهالى المدينة، التى مدت فيها قواتنا المسلحة جسور العبور إلى الشرق.

****

فى أحد المحلات العامة، الوقت حوالى العاشرة مساءً فى ركن المحل الأنيق مجموعة من أهالى بور سعيد، لكن هؤلاء - فى الظاهر - لهم نوعية مختلفة، إنهم كما يبدون، (خواجات) وكما يتعرف الأهالى إليك بسرعة هنا، فمن السهل أن تتعرف أيضًا بهم.

- أنا مهندس، اسمى جوزيف دونالتو، أنا مش خواجه، أنا مولود فى مصر، عشت فى بور سعيد عمرى كله، جضرت هنا سنة ١٩٥٦ و ١٩٦٧ ومن سنة ١٩٦٧ ما تركت البلد أبدًا.

أنا حياتى هنا.. أروح فين.. أنا أخصائى فى مراكب التفتيش البحرى صحيح الشغل دلوقتى مافيش، لكن أنا جريت يا حبيبى آخرج خرجت من بور سعيد شهرين بس، رحت دمياط، تعبت كتير، رجعت أنا والمدام لبيتنا هنا، وزى ما تيجى، تيجى، البلد هنا فيه

حاجة غريبة جدًا، يشدك له، لو سبته كأنك بتفارق صاحب عزيز.. عزيز جدًا.

لقد تشرب المهندس دونالتو الروح المصرية تمامًا، دائمًا هكذا مصر، تحيل الغريب مصريًا حتى النخاع، ارتبط بالمدينة، حتى أصبح من الصعب عليه أن يفارقها، طلب تصريحًا بالبقاء وفعلاً بقى فيها، وفى أصعب الأيام. خاصة فى العام الماضى، فى غارات الطيران المعادية، لم يفارق المدينة أبدًا. وبقى يصنع نماذج صغيرة رقيقة لسفن شراعية، كأمل غامض فى أن تدب الحياة فيها يومًا فتبحر، تمتلئ المدينة بالناس.

أما الدكتور عبد المنعم غندر، فنموذج آخر لأهالى بور سعيد، إنه بور سعيدى صميم، عاش الحرب العالمية الأولى هنا، يذكر أن الطائرات الألمانية جاءت وقتئذ ورمت بعض القنابل على المدينة، وكانت آثار القنبلة، حفرة فى حجم طبق كبير بالأرض؛ وفى عام ١٩١٩، كان رجال مدينة بور سعيد يهاجمون الجنود الإنجليز فى شارع محمد على كانت المعارك لا تنتهى بين الأهالى وجنود الاحتلال.. فى أوائل العشرينيات سافر الدكتور غندر إلى برلين، هناك درس الطب، عاد تصحبه رفيقة عمره، سيدة روسية رقيقة، تعرف إليها فى برلين، ومنذ هذه السنوات البعيدة لم تغادر بورسعيد ارتبطت تمامًا بالمدينة، أولادها الآن يقيمون بالقاهرة، يلحون عليهما

أن يحضرا للقاهرة، لكن الدكتور غندر يرفض رفضًا باتا، عاش غارات الحرب العالمية الثانية وضرب الألمان للمدينة، وقضى فترة ١٩٥٦ كاملة فى المدينة، بل إن إحدى قذائف الأسطول البريطانى أصابت الجدار الأمامى لمنزله المواجه للبحر، كان مع زوجته فى مكان آخر بالمدينة وقتئذ، والدكتور غندر لا يقيم بلا عمل فى المدينة، إنه يعمل مديرًا لمستشفى المبرة هنا فى بور سعيد المستشفى مبنى أنيق تحفه حديقة خصبة خضراء بأحد أحياء بور سعيد الهادئة المستشفى نموذج مجسد للنظافة الشاملة والعناية الحقيقية، وعلى الرغم من قلة رواده الآن، فإن الدكتور غندر يضع نظامًا غاية فى الدقة يكفل به نظافة المستشفى وإبقاءه معدًا وجاهزًا للعمل ولتلقى أية طوارئ فى أية لحظات، أن المحافظة والمنطقة الطبية تشرفان على المستشفى، وتقدمان له الإمكانيات المطلوبة.

***

... نفس الصور، المناظر التى تراها عند دخول أية قرية مصرية فى الريف، فلاح مصرى عجوز، وجهه ملىء بالتجاعيد، الجلباب القصير، واسع الأكمام، الطاقية الصوفية فوق الرأس، يدفع أمامه حمارًا محملاً بقفتين ممتلئتين بتراب الحقل، يجرى بجواره طفل صغير، ثم رجال يجلسون القرفصاء على حافة ترعة ضيقة. يدخنون، يتبادلون الحديث، امرأة عجوز تمضى بطيئة، أطفال صغار يلعبون، طفلة حلوة صغيرة كنسمة رقيقة، تحيط كنف أبيها، تقبله

قبلة رقيقة فيها حنان وحب يفيض بهما قلبها الصغير.

هاهو نورج يدور فوق تل من القمح أو الشعير. رجل يذرى القمح بالمذراة.

شبان يستمعون إلى راديو ترانزستور ثم تمر أمام بقال القرية، دكانه الصغير، الرفوف مليئة بعلب زهرة الغسيل، ماركة المحمل، صابون، وحلاوة طحينية، وسجائر. وثلاجة مليئة بزجاجات المياه الغازية، وعلب زيت، وسمن. الأشجار تميل فى اتجاه الريح. ومياه الترعة تمضى هادئة، وادعة، كل شىء تراه يجسد رقة الريف المصرى، طيبته وإنسانيته. وحضارته ثم وداعته. لن يصدق الإنسان أبدًا أنه فى خط النار، إن العدو يبعد عن مياه هذه الترعة عشرات الأمتار يفصله عنا مياه القناة، إنه وراء هذه الأشجار، حقول الخضرة، أشجار التفاح، ورائحة المشمش.

جميع الرجال هنا كانوا قد رفضوا التهجير وبقوا، عقب حرب يونيو صدرت الأوامر بتهجير المدنيين من منطقة القناة، إن وجودهم يعرضهم للخطر فالمدنيون هدف رئيسى للعدو، يسلط عليه حقده وغضبه، كلما تعرض لضربات قواتنا المسلحة، غير أن الفلاحين البسطاء الذين يزرعون الأرض المحاذية تمامًا لقناة السويس تمسكوا بأرضهم. فضلوا البقاء فوقها، يزرعونها، يعيشون فيها بأولادهم، عائلاتهم، الرجال يفلحون الأرض، والنساء من أجل رعاية المزارعين، فالفلاح المصرى لا يمكن أبدًا أن يعيش بمفرده، الزوجة

تعد له الطعام، تغسل له الثياب، وإذا بقى الأب والأم، فأين يذهب الأطفال.

فوق نورج راح يدور فوق تلال القمح جلست امرأة وحولها أربعة أطفال، الوقت عصر، وغناء ينبعث من راديو قريب، الجو هادئ نسبيًا صوت النورج يسمع بوضوح، نبض الحياة لا يتوقف على بعد أمتار من عدو غادر يبغى تقويض كل أثر للحياة.

وفى جرن كبير يقف إبراهيم أحمد طه، فلاح مصرى صميم، أسمر. طيب القسمات، على مقربة منه ابنته ماجدة. صغيرة رقيقة نحيلة العنق، مضفورة الشعر، أسنانها دقيقة تبدو واضحة عندما تضحك خجلة، ما الذى دفع بإبراهيم إلى البقاء هنا مع أسرته. مع ابنته الصغيرة، تحت نيران المدافع وغارات الطيران، ويأتى منه الجواب بسيطًا واضحًا بلا أى تعقيدات أو فلسفة.

- أسيب أرضى وأروح فين. الأرض دى خدمت فيها عمرى كله.. كل شبر فيها خدمته من جسمى ودمى، أرضى ماسابتنيش ساعة الأمان، أقوم أنا أسيبها ساعة الشدة، وبعدين آكل عيش فيها، فيها كل حاجة.

إبراهيم طه أحمد، متزوج، ماجدة الصغيرة بنته، عمرها خمس سنوات، له ابنة أخرى، وولد، إبراهيم مولود ١٩٢٩، منذ هذا التاريخ وهو يقيم هنا، لم يعرف الرحيل إلى المدن إلا مرات. أبوه جاء من

سوهاج ليشترك مع العمال المصريين فى حفر القناة، ثم بقى هنا. إن إبراهيم يمتلك نصف فدان، بالضبط نصف فدان..

محمد جوده أحمد على أيضًا يمتلك فدانًا، يعول والدته التى تعيش معه، غير متزوج، أبوه مات عام ١٩٤٩، أمه كافحت حتى جعلته رجلاً، كانت تزرع الأرض، وتحصد الزرع، وتساوم التجار وتدبر اللقمة من أجله. وبمجرد أن اشتد عوده أصبح هو يراعيها، وهى التى تقضى له شئونه هنا، تعيش معه، فى وجهها آثار السنين والكدح، محمد جوده فلاح يزرع الأرض، وفى الوقت نفسه تدرب على أعمال الإسعاف، إنه أحد أعضاء فريق الإسعاف فى القرية احيانًا يشفق على والدته فيعرض عليها أن تهاجر، لكنها ترفض تمامًا، أين تذهب، هل تتركه بمفرده؟.

معظم المزارعين هنا أمثال إبراهيم ومحمد جوده ملكيتهم تتأرجح بين نصف فدان، وفدان، وكثيرون لا يملكون شيئًا، بقوا مع هذا يعملون فى الأرض، الأرض هنا كانت تزرع بالخضار الذى يمون مدينة السويس. الفلفل والطماطم والبامية، لكن بعد التهجير اضطروا إلى تقليل محصول الخضار، والتركيز على زراعة القمح والفواكه، خاصة المشمش، والمشمش هنا حلو المذاق..

يستمر العمل فى الحقول وقت الاشتباكات عندما يتفجر الهواء بالهلاك، فإن الفلاح يصغى يستمر فى عمله مادام يحس أن الضرب بعيدًا عنه. لقد أصبحت عندهم خبرة بالقتال، خبرة

اكتسابها ليس سهلاً، يعرف اللحظة التى يصبح فيها الضرب خطرًا عليه، عندئذ يتوقف، أما إن ينتقل إلى منطقة أخرى، أو ينزل الخندق، أصبح أهالى القرية يميزون أنواع المدافع وعندما ينطلق مدافع العدو الثقيلة، فإنهم يطلقون عليه:

- أبو جاموس أهه بيرفع صوته.

- حالاً الشيخ طه حيسكته.

والشيخ طه طبعًا أحد مدافعنا.

***

ماجدة.. منى.. نادية.. وغيرهن، بنات صغيرات، رقيقات فى عمر براعم الزهور، إنهن كثمار التفاح، وزهر المشمش هنا، صغيرات ترى مثلهن فى أى مكان لكنهن يعشن فى ظروف الحرب، ما الذى تفعله ماجدة ساعة الضرب؟؟

- باروح.. باروح الخندق..

إنها تعرف أيضًا كيف تميز أصوات المدافع من بعضها..

- فيه الـ.. الهاوسر (الهاوتزر).

ماذا؟؟.

- والهاون..

أما نادية البالغة من العمر ست سنوات ابنة الفلاح عبد العاطى، فقد ذهبت إلى بلبيس مع جزء من العائلة، لأنها دخلت المدرسة، والآن عادت فى إجازة إلى بلدتها، ترى ما هو المكان الأفضل بالنسبة لها.

ـ هنا أحسن.. أنا حقعد مع بابا..

يقول أبوها:

ـ هنا فيه ضرب يا نادية.. أنا حخلى الأفندى يخدك معاه دلوقتى.. أهه.. معاه العربية ينزل بيكى على بلبيس.

ويكاد صوتها يختنق.

ـ لا.. هنا أحسن.. أنا مش حمشى من هنا.

وتقوم لتحتضن عنق أبيها.. الفلاح الطيب العجوز..

ـ ليه يا بابا عايز توديني بلبيس هو أنا ضايقتك فى حاجة.. زعلتك فى حاجة؟؟!

منذ ثلاثة شهور، وتحت نيران الحرب، تزوجن ابنة حسن السيد، قام الشباب فى البلد بإحياء الفرح، فرح صامت..

ـ جدعان مع بعضها.. بس مانورناش ولا عملناش زينة..

أسرة جديدة تتكون فى هذه الظروف، ومنذ أسبوعين وأثناء

الليل، أغارت الطائرات المعادية على المنطقة، وألقت إحداها بقنبلة.

- لستر ربنا جات فى جدار البيت.

عندئذ انهار المنزل فوق العريسين، لم يصابا، غير أن العريس أصيب ذراعه بالتواء، ونزل السويس ليعالج، وبقت عروسه الحلوة سوداء العينين، الشابة، تنتظر فى القرية حتى يعود من المستشفى، إنها تقيم فى بيت أبيها، حتى يدبر لهما مكانًا آخر، لا تفكر مطلقًا فى الهجرة، لكن كيف تمضى حياتها هنا، إذا حدثت غارة، أو اشتباك وتصادف أنها تطبخ مثلاً:

- أقوم أطفى الوابور عشان اسمع الضرب وساعات أكون أخبز.. أطفى الفرن.. الواحدة مننا يا فندى اتعودت على كده.. دى الفرن بتطفى أكثر من مرة واحنا بنخبز.. وساعات الواحدة منا تطفى الوابور على كبابة الشاى ثلاث أو أربع مرات..

فى طرقة ضيقة بين البيوت، قعد الرجال، دارت علينا أكواب الشاى، أن الحوار الذى يدور بينهم دخلته ألفاظ جديدة. اهتماماتهم دخلت عليها أمور جديدة.

- أول إمبارح ضربت زريبة حسن أبو حجر لكن ربنا ستر.

لقد استعمل العدو قنابل الفسفور ضد مزروعات القرية محاولاً إحراقها، وهم يعرفون هذا تمامًا، وبعضهم استشهد.

- فاكرينه.. الله يرحمه.. الدانة جات وقت الغدا.. راح قبل منهم بساعة..

- مرات إسماعيل كانت لسه والدة.. الله يرحمها..

ذكرى الشهداء تثير الحزن، والألم والحقد والتصميم أيضًا على قهر العدو. غير أن أصواتهم ارتعشت، عندما ذكروا المقاتل سعيد الذى استشهد أثناء إحدى عمليات العبور سعيد بشاتلى ابن القرية. نجم يلمع فى سمائها، رائحة خضرة لا تجدب أبدًا، وماء يترقرق، لا..

- الواحد يا جمعة مش مصدق أن سعيد استشهد.. كأنه راح من حته لحته يا جدعان.. (من مكان إلى مكان).

- يا سلام.. سعيد كان شهم.. كان دراعك اليمين، تعاشره دنيا وآخره، كان بيساعدنا، ويقعد معانا.. راح لربه يوم ثلاث.. الساعة واحدة الظهر..

- الساعة واحدة ونص يا عبد العاطى..

- ما تفرقش.. الله يرحمه.

تجىء أكواب شاى جديدة، اسأل، هل لهم أى مطالب، يجيب سعيد عبد العاطى، مسئول الإسعاف وموظف المحافظة:

- والله المحافظة بتقدم تسهيلات كثيرة لنا.. بتسهل لنا عملية نقل الفواكه، لكن لسه ما بيصرفوش لنا كوابين الجاز عشان اللتر

من غير كابون بتلاته صاغ.

يرد فلاح عجوز:

- لا واللّه.. أنا جاييه إمبارح بتلاته ونص.

العلاقة بينهم وبين المقاتلين تلمس فيها روح العائلة، لا عجب، أليس المقاتلون أبناء قرى أخرى يشترون منهم البيض المشمش، والتفاح، يقول إبراهيم:

- إنا فى الليل باكون نايم.. والعسكرى قاعد سهران ورا مدفعه، فأنا باقول لنفسى هو سهران علشانى أنا، علشان حريمى وعيالى وأرضى، لو طلب منى أنور له بصوابعى أعمل له صوابعى شمع وأنورها له.

ويمض الحوار، وفوق التراب ينفش ديك ريشه، ينقر ديكًا آخر، على مقربة تمضى بقرة تمضغ برسيمًا أخضر، فى عينها وداعة النخيل ورسوخ أشجار الجميز، ورشاقة الصفصاف، الجو نسمات رقيقة، أصوات النوارج، أو يعبر الطريق، فى أية لحظة قد ينفجر الهواء بالقذائف، بالاشتباكات وتمضى الحياة، الفلاحون يصنعون عناصرها والجنود يحمونها، يذودون عنها..

***

وعندما تجدد الخطر، وحاول العدو مهاجمة مدينة السويس اتحد الجنود والمواطنون، وقف الإنسان المصرى ليصد الجيش

الإسرائيلى مرة، ومرتين وثلاث مرات.

وبقيت السويس حرة.

***

رايت فى الأفلام التسجيلية مدنًا كثيرة، دمرتها الحرب، روسية، ألمانية، فيتنامية، لكننى لم أجد ولن أرى فى حياتى أفظع مما تجولت بينه فى مدينة القنطرة غرب، لقد استهدفها العدو حتى دمر معظم بيوتها. وبرغم بشاعة الصورة فإنها تكشف بعدين. ـ أولاً ـ شراسة العدو ووحشيته، ـ ثانيًا ـ صمود مصر مجسدًا فى هذه المدينة الصغيرة التى كانت هادئة على ضفافى القناة، غير أن هذه الوحشية من العدو وجدت فى مواجهتها نوعية خاصة من الرجال، طراز آخر من الإنسان المصرى الذى يولد هنا، يبعث من جديد.

كانت القنطرة غرب فى هذه الأيام وريدًا حيًا يدفق دمًا فى قلب مصر، ورأينا من أهالى المدينة أعضاء مجلسها، فى الوقت نفسه أعضاء المقاومة الشعبية، كانوا يعملون فى أغرب ظروف يعمل فيها جهاز وظيفى فى تاريخ مصر. فى أحد المخابئ انهمكوا فى تحضير ميزانية المجلس لعام ١٩٦٩ فالإنتاج فى أراضى القنطرة لم يتوقف، وربما كانت نوعية الرجال هنا الذين تحدوا العدو فى فترة مبكرة جدًا، فى الأيام التالية للعدوان، تفسر حقد العدو على المدينة، لدرجة أن اليهود ضربوها بأثقل أنواع الصواريخ وقذائف الهاون

ضربوا جامع البلدة، لدرجة أنه عندما اطلعنى محمد يسرى الشعراوى على صورته قبل الضرب لم أتخيل أن هذا المكان المنبسط وهذه الحجارة كانت تشكل البناء الرائع فى الصورة.

كان محمد يسرى الشعراوى متألمًا جدًا لهذا يتجول معنا ينظر حوله، ويشرح لنا ما نرى كلماته سريعة قامته رياضية، تحتويها سترة مليئة بالجيوب، خاصة برجال المقاومة، إنه مدرس إعدادى، من أهالى القنطرة، رفض مغادرة المدينة وعندما أصروا على نقله، قدم استقالته مرتين فعلاً استقالة مسببة ليبقى فى القنطرة بعيدًا عن زوجته وولى العهد (ابنه) المقيمين فى بنها. غير أن المسئولين اقتنعوا ووافقوا على بقائه هنا فى أسخن مناطق المواجهة، لقد دمر بيت يسرى تمامًا اخترقته عدة صواريخ وقذائف، بخطوات بطيئة كان يتجول داخل غرفة، غير أن الدمار لم يخف الحياة التى تبرق وتضوى من خلاله، بقايا تفل شاى فى كوب مكور غطاء براد، قماش قديم مقطع إلى شرائط كان يعد لنسجه كسجادة، فى بيت آخر أقصد بقايا بيت رأينا كراسة طفل صغير، مغلفة بورق، عليه تكيت كبير (مدرسة القنطرة غرب، الإعدادية للبنين، حسن على عبد الرحيم، ثالثة أول) كان أحد تلاميذ يسرى.

عدنا إلى الطريق الذى ضاعت معالمه. وفى عربة مجلس المدينة جلسنا لصق السائق، إنه أحد رجال المقاومة أيضًا. بدين، قصير

القامة ينام بجوار بقايا مبنى فى مخبأ خاص به مستدير يبدو منه الأعلى دائمًا يقوم فى أية لحظة، يطلب منه أداء مهمة تتلخص فى قيادته للسيارة، إن عم حسن من أهالى بور سعيد، يقيم فيه فى القنطرة حتى يتم إخراج اليهود، له من الأولاد، على، ومحمد، وعبده، وفتحية، وأمل، فى عام ٥٦ حارب كمتطوع فى الحرس الوطنى وجرح، وأصيب فى كتفه، يعرف الاستعمار جيدًا عندما يتجسد فى رجاله المسلحين الذين يهددون الوجود الشخصى للإنسان، وعرضه، وحياته، وعائلة عم حسن تقيم فى المنزل، يراها كل أربعين يومًا ويعرض نفسه كل يوم للموت عشر أو عشرين مرة، فالعربة التى يقودها لابد أن تمر على طريق طوله ثلاثة كيلو مترات، مواجه لمواقع العدو مباشرة لقد دأب العدو على ضرب السيارة المدنية باستمرار فى هذه المنطقة بالذات.

سألته ونحن نجتاز هذه الكيلو مترات الخطرة:

ـ ألا تخاف وأنت تعبر الطريق مرات يوميًا؟ ضحك، وقال:

ـ وهل يموت أحد فى غير حينه ولكل أجل كتاب..

إن النشوة تبلغ مداها عند عم حسن ساعة رؤيته لمواقع العدو مشتعلة بالنيران، وعندما وصلنا إلى محافظة الإسماعيلية، ودعوته إلى الجلوس، كان كلما رأى «أفندى» من موظفى المحافظة يقوم واقفًا، يبدو حائرًا، يفيض خجلاً ورقة، استأذن فى العودة فقد أوغل

الليل.

وفى القنطرة كان عصب الرجال، الشريان المحرك للطاقات، يتمثل فى طاهر الأسمر، إذ أراه أذكر راهبًا من الرهبان المصريين القدامى الذين آمنوا بالعقيدة، فخرج عن الدنيا، يتحدى الرومان، ويعايش الصحراء والخلاء، ويموت ببساطة، أو متصوف وهب روحه للفكرة ووقت الجهاد يكون أول من يرفع البيرق، هذا ما أراه إذ التقى بطاهر الأسمر، الذى عاش مع أهالى القنطرة طوال السنوات الصعبة حتى رأى عبور قواتنا، وإنما كنت ألتقى به بين الفلاحين، بين أفراد المقاومة الشعبية فى المنطقة، أذكر حديثه عن مظاهر المقاومة وصلابة الإنسان فى المنطقة، عن التضامن العميق بين رجال قواتنا المسلحة، أذكر قوله، إن القنابل تؤثر فى المبانى، ولكنها لا تؤثر فى النفوس أبدًا، لقد عشنا اليوم الذى نعبر فيه القناة معًا فى مواجهة القنطرة غرب، ونمشى فى شوارع القنطرة شرق وبين حطام البيوت تتوهج أحلام طاهر الأسمر بما سيصبح عليه الوضع فى المدينة، عندما يزاح الكابوس بأكمله من فوق سيناء..

سيد القزاز، فتى فى حوالى السابعة عشرة، ابن أحد الفلاحين فى القنطرة غرب، حصل على الإعدادية عام ١٩٦٧، أبوه يمتلك أرضًا هنا، ولأن سيد هو الابن الوحيد، فقد آثر أن يبقى مع والده ليساعده فى فلاحة الأرض، فى الوقت نفسه كان سيد يواصل

دراسته، انتقل من السنة الأولى الثانوى إلى الثانية، كان يضىء لمبة الكيروسين الخافتة فى أعمق حجرات البيت بعد أن يغلقها تمامًا، وفوق الطبلية يسند الكتب، ويذاكر حتى ساعة متأخرة من الليل، وفى النهار يخرج مع والده إلى الحقل قد تكون هذه الصورة عادية فى مكان آخر، ولكن هنا فى جبهة القتال حيث الخطر، وانفجارات، فإنها تكتسب أبعادًا أعمق وأشمل. نجح سيد فى العمل والدراسة كانت الليالى مشحونة بالغارات والاشتباكات، ولكن لم يوقفه الخطر أبدًا، لم يثنه الهلاك، واستمر فى تحصيل العلم وهكذا تقهر إرادة الحياة، إرادة الموت.

****

خلال الشهور الأولى من عام ١٩٧٠، برز وجه رائع من وجوه بطولة الإنسان المصرى، وعظمته فى جبهة القتال بقناة السويس.

خلال هذه الشهور جاء العمال المصريون من أطراف الصعيد البعيد، من القرى النائية من الريف جاءوا ليشتركوا فى بناء قواعد الصواريخ المضادة للطائرات، كان لا بد من إقامة هذه القواعد فى الجبهة مهما كان الثمن. وكان السباق مروعًا، من ناحيتنا لا بد من الانتهاء منها بسرعة، ومن الناحية الأخرى كان العدو يركز كل قواه الجوية بجنون وبعصبية لمنع إقامة هذه القواعد. وقبل أن يغادر العمال المصريون قراهم إلى الجبهة كانوا يعلمون تمامًا إلى أى

مهمة يمضون، الظروف التى تحيط بالعمل فى هذه المواقع البعيدة، كان المقاول يجىء إلى القرية ويطلب عددًا معينًا من الرجال، وفى البداية كان العدد يمضى كاملاً، غير أنه بمضى الوقت ومع رجوع الرجال الذين ذهبوا، كانت معان أخرى تضاف إلى الصورة يجيىء المقاول، إنه متردد قليلاً هذه المرة، ويطلب رجالاً كالعادة، ويتقدم عدد أكثر من العدد الذى سافر فى أول مرة، هذا ما شاهدته قرى الصعيد البعيدة، أو قرى الوجه البحرى، دائمًا فى كل مرة يجىء فيها المقاول يجد العدد المطلوب من الرجال، تتدافع إليه وجوههم السمراء ترتفع أيديهم المعروقة، التى تشقق جلدها يطلبون الذهاب للاشتراك فى بناء القواعد، مع إخوانهم جنود القوات المسلحة.

كانوا يعرفون تمامًا ما ينتظرهم، فعدد غير قليل مضى إلى هناك، ولم يرجع، سقطوا شهداء فوق الرمال، احتوتهم الأرض المصرية بعد أن هاجمهم الطيران الإسرائيلى بالقنابل الثقيلة. كافة ما يمكن تصوره من وسائل الهلاك والدمار، مع هذا كانت طوابير الرجال تمضى فوق الجسور الواقعة خارج القوى، النساء والأطفال يودعونهم ومنهم من اصطحب طفله معه، ومنهم من حمل عدة الشاى يصنع بها شايًا يشربه مع إخوانه، مع كل منهم طعام أعدته له الزوجة إنه الطعام المصرى البسيط الأبدى، ربما لم يتغير منذ أن مضى أجداده يشيدون الأهرام أو عندما مضى هو منذ سنوات ليشيد جبلاً فى عرض النهر ليلوى عنق النيل فى أسوان.

كان منذ سنوات يبنى الحياة.

وهو الآن يمضى إلى جبهة القتال ليقيم سدًا عاليًا فى وجه العدو، وعندما يعودون إلى مواقع العمل فى الصباح أو العصر، أو وقت الغروب، كانوا يتطلعون حولهم، ربما بحذر، ربما بخوف، الخوف الإنسانى المشروع، ربما حب استطلاع يراود كل منهم ربما الحنين إلى الأسرة الصغيرة التى تنتظر عائلها فى القرية ربما.. ربما..

غير أن ما كان يضع حدًا لهذه المشاعر المتناقضة هو العدو نفسه، بمجرد أن يجىء الطيران الإسرائيلى، يقصف المواقع، عندئذ تتصهر هذه المشاعر كلها فى شعور واحد هو التحدى، لا بد أن يتم هذا البناء، هنا تبرز أهم عوامل الأصالة التى تشكل الشخصية المصرية البساطة، التضحية، الشجاعة، وبرغم عنف هذه الغارات والموت بقى العمال المصريون كل يوم يزيدهم إصرارًا على استكمال البناء، وكما قال أحد الرجال الصعايدة، تجاوز الخمسين من العمر، غير أن وجهه، يحمل همة الشباب اعتزازه بنفسه وبكرامته..

- ما هو ده لما يكمل.. يحوش الأذى عننا وعن إخواننا وإذا كنا إحنا مش حنكمله.. أمال مين حيكمله يابوى!!

****

فى أحد مواقعنا بجبهة القتال..

والزمان.. مارس ١٩٧٠..

ليلة قضيناها مع مهندس مصرى، من الذين أشرفوا على بناء قواعد الصواريخ، فى هذه الفترة كان عمله قد انتهى تقريبًا، وكان إنسانًا مصريًا بسيطًا جدًا، ما زلت أذكر وقع صوته الهادئ فى الحرب المشحونة بالتوتر، والعنف الترقب، يرتدى نظارة طبية تميزه روح ساخرة جدًا. تطل من حديثه دائمًا.

- إن حجم الآلات والمواد المستخدمة فى بناء قاعدة واحدة ضخم جدًا، من هنا تخيل مدى صعوبة إخفاء هذه المواد والآلات عند الإنذار بوقوع غارة جوية.. إلى جانب هذا لا تنس الرجال العاملين معى، والذين لابد من توفير أقصى إمكانيات الحماية لهم.

كانت المخابئ أو الحفر البرميلية أول ما قمت به عند وصولى إلى منطقة العمل، كل حفرة لفرد واحد، ولنضرب مثلاً، إذا كان عندى عشرة عمال حفرت خمس عشرة حفرة يعنى عدد الحفر لا بد أن يكون أكثر من عدد العمال. وعند حدوث الغارة تعطينا أجهزة الإنذار تحذيرًا بها والطيران المعادى فوق سيناء نفسها، عندئذ تنطلق صفارات الإنذار وينزل الجميع إلى المخابئ، والمعدات إلى الحفر المخصصة لها.

ويذكر المهندس رجاله، العمال الذين عملوا معه، نشاطهم فى تشييد البناء، كل (قصعة) مونة تضاف إلى عامود خرسانة، كل كيس

رمل، كان يعنى قرب انتهاء البناء، ويذكر المهندس أحد مواقع العمل القريبة، عندما أغارت الطائرات المعادية وأصابت عددًا غير قليل من العمال، وفى الليل عندما انتهت الغارة قام العمال بنقل إخوانهم المصابين، الذين اختلطت دماؤهم بالأسمنت والحجارة ولم يتوقف العمل. وفى اليوم التالى كان عدد العمل المصريين الذين جاءوا إلى هذه القاعدة بالذات يفوق عدد الذين كانوا موجودين أصلاً.. ولم يتوقف العمل، ويصغى المهندس إلى أصوات الليل، ليل الحرب ويقول فى بساطة، نفس بساطة العمل الصعيدى الذى تحدثنا إليه من قبل.

- أنا لست ثريًا.. لقد كان أبى يعمل حمّالاً فى محطة المنصورة وبرغم هذا أنفق عمره على حتى علمنى، وتخرجت فى كلية الهندسة، ومنذ تخرجى وأنا أشعر دائمًا أن مصر تعطينى.. تعطينى ولا تأخذ منى، إننى الآن موظف كبير على الفئة الثامنة كما يسمونها، ومنذ أن جئت إلى هنا، صدقنى والله والأول مرة أشعر أننى أرد بعض الجميل إلى مصر.. هل متفهمنى عندما أقول إلى مصر أعنى إلى أبى.. إلى الرجال الذين رأيتهم يستشهدون فى أول العمر هنا حتى تعيش أنت وأعيش أنا ويعيش غيرنا.. هل تفهم؟؟

فى موقع آخر.. بدت ظاهرة أخرى فى ملحمة العمال المصريين بناة الصواريخ، كان هذا الموقع قريبًا من إحدى القواعد المصرية فى

خط النار، وكان معظم العمال هنا من أهالى هذه القرى، غير أن عنصرًا آخر اشترك فى العمل، إنها المرأة المصرية، عدد كبير من نساء القرى المجاورة جئن إلى موقع العمل. يشتركن مع الرجال، فى حمل المونة، خلط الأسمنت، تفريغ الشكاير، وكثيرات جئن فى البداية بدافع الاشتراك فقط، تقديم المساعدة إلى الرجال الذين الذين يشيدون مبانى سوف تمنع الأذى عنهم، وكانت أغنيات النساء تتصاعد مختلطة بهدير آلات الخلط والحفر، وصيحات العمال الصعايدة الغامضة الحزينة، بعضهن تجاوز الخمسين عامًا، غير أنك تراهن بين المواقع يمشين منتصبات القامة، ثيابهن مغطاة بالأسمنت والجير، تميزهن من بعيد بملابس الفلاحة المصرية السوداء الأبدية البسيطة لا يحدثن أية جلبة، أية ضجة، بل على العكس، بذكر الرجال الذين اشتركوا فى بناء هذه القاعدة، طفلة صغيرة جاءت مع أمها، الطفلة عمرها حوالى ست سنوات، حلوة رقيقة كالبسمة الصادقة كتحية الصديق للصديق، وجودها بعث فى الرجال مشاعر شتى عديدة، الكل يناديها، تحمل أكواب الشاى إليهم فى فترات الراحة، تساعد فى أى شىء، كان اسمها (سماء) كانت طفولة جيل بأكمله يتحرك فوق موقع مصرى من أخطر المواقع، لم ترهبها الطائرات الإسرائيلية، ولا قنابل الألف رطل الأمريكية، إنها تعرف كيف تميز جيدًا بين الفانتوم والسكاى هوك. كانت سماء تمثل أصوات الطائرات بكلمات أو جمل تنطقها فى حركات تمثيلية

طريفة يذكرها الرجال بحب.

وفى وقت الغذاء كان أحد المندوبين عن العمال يمضى إلى مراكز تعيين القوات المسلحة ليحضر الطعام لزملائه، فقد أصدر قادة المناطق أمرًا بأن يصرف غذاء العمال من تعيين الجنود، ويصرف لهم الترفيه أيضًا، السجائر، الحلوى، وكانت سماء تمضى مع المندوب، وتعود تحمل فوق رأسها الأرغفة الساخنة الطرية، هى نفسها كانت كالرغيف الساخن العذب، وكان الرجال يتسابقون ليأخذوا ما توزعه عليهم. كل منهم يرى فيها ابنته.

ظلت سماء كالضحكة فى قلب الموقع.

ويطرق الرجل الصعيدى العجوز الذى جاء من نجع عرابة أبو الذهب فى سوهاج ليبنى القواعد هنا، ترتعش قسمات وجهه الأسمر. الذى تبدو فى ثناياه تجارب حياة طويلة وشاقة، وألمح دموعًا سهلة ساخنة تنحدر من جانبى عينيه:

ـ سماء كانت بنتى.. ومش ممكن أنساها أبدًا.. ولا واحد من زمايلنا راح ينساها.. إنما حنعمل إيه يا أستاذ.. عمرها كده

الطريق إلى أكتوبر

٣٠ يونيو ١٩٧٠

شهدت أول تساقط لطائرات الفانتوم بواسطة صواريخ الدفاع الجوى المصرى، فى منطقة فايد رأيت الطائرات المعادية تتساقط فوق ساحات الرمال الشاسعة، فى هذا اليوم ساد المقاتلين شعور بالبهجة، كان يوم ثلاثاء، الوقت عصر، الضوء يشحب فى السماء، كنا نقف فى أحد المواقع، تحيطه أكياس الرمال، بجوارنا أحد المقاتلين الذين يرقبون الطيران المعادى، يقوم بالإبلاغ عن الطيران بعد تحديد مسافته ونوعيته وسرعته، وفى الحال يتولى رجال الدفاع الجوى التعامل مع الأهداف المعادية رأينا طائرات الفانتوم متجهة من الشمال إلى اليمين، فجأة.. بدا خط نحيل أبيض اللون يشث السماء إلى أعلى، إنه العادم الذى يدفع الصاروخ إلى أعلى.

.. إنها الصواريخ.

فى ثوان سقطت طائرتان فانتوم، انفجر الجسمان فى الجو، تحولا إلى كتلتين برتقاليتين فاقعتين، بدت المظلة برتقالية اللون، إذن تمكن أحد الطيارين من النزول حيًا، فى الوقت نفسه أسرعت وحدات أخرى إلى القبض على الطيارين الإسرائيليين، بينما اندفعنا إلى الموقع الذى سقطت فيه الطائرات، وثمة معان كثيرة تتبلور فى أفئدتنا إذن لقد نجحت قواتنا فى دفع كتائب الصواريخ إلى الجبهة، وهذا ما حاول العدو إيقافه بشتى الوسائل طوال الشهور الستة الأولى من عام ١٩٧٠، حتى يكفل لطيرانه حرية العمل، وخلال هذا خاض رجال الدفاع الجوى المصرى معارك بالغة العنف والشراسة ضد طيران العدو، والآن.. هاهى مرحلة جديدة تبدأ من الصراع ضد العدو.

فوق الأرض مظلة قماشها ملون، مجموعة حبال بقايا معدات الطيار الإسرائيلى، بطارية رفيعة فى حجم القلم الحبر، البطارية مكتوب عليها بحروف إنجليزية اسم المصنع، والمكان شيكاغو، جميع المعدات فى الطائرة مكتوب عليها باللغة الإنجليزية التى تعلن بصراحة مكان صنعها الأمريكى، حتى المعدات الصغيرة جدا مثل الشريط الطبى اللاصق، أو الرباط الطبى الميدانى، علبة سوداء صغيرة بها جهاز يطلق إشارات لاسلكية تشير إلى مكان الطيار، إنها معدات الجيش الأمريكى نفسه، فى كل معدة صغيرة رأيتها، فوق كل بطارية محول كهربائى، كل كبيرة أو صغيرة، تحمل هذه العبارة التى

تقول معنى أكبر وأخطر، تصرح فعلا عن حقيقة القوى التى تخوض الصراع ضدها، حتى علب الطعام المحفوظة فى الطائرة، تحمل نفس العبارة غير أن الأشلاء الممزقة لجسم الطائرة تثير الكثير من الأفكار، هذه البقايا، الحطام، الملتوى، المعدات الدقيقة جدا، جاءت الطائرة تحمل الدمار، غير أنها تحوى داخلها نهايتها، دمارها الذى أحال آلة الهلاك الطائرة هذه إلى مجموعة من المعدن المحروق.. جثث معدنية.

أما الطيارون الإسرائيليون الذين اخترقوا سماءنا بسرعة الصوت، فقط سقطوا فوق الأرض، مجردين من كل ما أحاطهم بالأمان، وبدا فى هيئتهم الذعر الإنسانى فى أقبح صورة، كانوا يحاولون الاختباء فى الجبل ولكن عندما تقترب دائرة الحصار من حولهم يستسلمون، ولحظة نزول الطيار يكون شديد الظمأ، أول ما يطلبه الماء، وهنا يبدو موقف من المواقف الغريبة الفريدة فى الحرب، هذا الإنسان الظامئ المرتعش خوفا جاء يحمل الموت إلى رجالنا الذين يحيطونه. بإمكانهم أن يفعلوا به أى شىء، إن موقف الإنسان يكون حساسا ودقيقا، لكن المقاتل المصرى يعلو فوق مستوى اللحظة، ويبرز الجانب الحضارى فيه، فتمتد يده بكوب ماء، أو قطعة خبز للأسير، لقد انتهى دوره كمقاتل، وأصبح الآن بلا حول ولا قوة.

فى شهر يوليو ١٩٧٠، وحتى السبت الثامن من أغسطس توالى تساقط الفانتوم بالصواريخ المصرية، ميدان آخر أثبت فيه المقاتل المصرى تفوقه.

* * *

السماء فسيحة، صافية، شفافة الزرقة، بلا نهاية، وفوق الأرض تنتصب الصواريخ المصرية أرض ـ جو كأنها أصابع تهدد العدو القادم خلال هذا الفراغ، فى لحظة بعينها تنبثق ذيول النيران من هذه الأجسام المعدنية الرشيقة فتحيل القضاء جحيمًا. وتسقط أهداف العدو الجوية التى تجىء لتصب الدمار فوق أرضنا، حول الأجهزة المعقدة يقف رجال القاعدة، القائد الشاب الذى تجاوز للعدو عددا من طائراته، حوله ترى مقاتلاً شابًا، حاصل على ماجستير فى العلوم الهندسية، فى القاعدة أكثر من مقاتل حاصل على مؤهل عال، بعض من آلاف المؤهلين، خريجو الجامعات المصرية الذين انخرطوا فى قواتنا المسلحة بعد يونيو ١٩٦٧، والذين كان لوجودهم تأثير كبير على سرعة استيعاب الأجهزة العلمية المعقدة، ودقة استخدامها، فى دفع قواتنا المسلحة إلى مراحل أكثر عصرية. وهنا يبرز أصل الدور الاجتماعى الذى أدى إلى النصر فى أكتوبر، فهؤلاء من خريجى الجامعات المصرية، ولم يكن ممكنا تدفق آلاف هؤلاء المؤهلين إلا بعد فتح أبواب الجامعة لأبناء الشعب، بحيث

تتسع قاعدة المتعلمين إلى أقصى حد ممكن، وهكذا تجد الأصالة والمعاصرة جنبا إلى جنب فى جنود قواتنا المسلحة، بل إن الجسم الخرسانى للقاعدة يجسد أيضًا أحد ملامح التحول الاجتماعى المهم فى مصر بعد ثورة يوليو، لقد أنشأت شركات القطاع العام الكثير من المنشآت الخاصة بقواتنا المسلحة، وقامت بإعداد التجهيزات الهندسية من خلال سلاح المهندسين، إن هذه الشركات التى وجهت جهدًا كبيرًا من طاقتها إلى خدمة الأغراض العسكرية، ساعدت على سرعة تجهيز مثل هذه المنشآت.

فى قاعدة الصواريخ يتجاوز المهندس والفلاح الموظف والعامل، هاهو المقاتل بدير الفلاح من بلقاس يقف فوق مرتفع من الرمل وعلى بعد منه ينتصب صاروخ، كلاهما متمم للآخر، كأنهما ذراعان قويتان تدفعان الأذى عن وطننا الأم. أن الرجال العاملين فى قواعد الصواريخ يتسمون بعلامات تميزهم عن الآخرين، فى التصرفات فى الحياة اليومية، إن شكل الحياة بينهم يتسم بطابع خاص، كما أن نوعياتهم وطبيعة العمل الذى يقومون به يجعلهم فريقًا متكاملا، تماما كالسيمفونية التى تعزفها عشرات الآلات الموسيقية، لكى تخرج فى النهاية نغمًا متسقًا عذبًا.

* * *

روح علمية خالصة، وإنكار تام للذات..

هذان هما أهم انطباعين يتركان أثرًا واضحًا فى الإنسان عند معايشته للمقاتلين العاملين مع الصواريخ، روح علمية تلمحها على كافة المستويات، إن طبيعة السلاح الذى يستخدمه الإنسان تترك بصماتها واضحة عليه، فإذا كان هذا السلاح عصريًا معقدًا لكى يمكن استيعابه لا بد من دراسات علمية عديدة رفيعة المستوى والإحاطة بعدة جوانب علمية تتصل اتصالا مباشرا بطبيعة السلاح المستخدم. من ناحية أخرى لا بد من استيعاب أسرار السلاح كاملة، الوقوف على أدق خباياه، على إمكانياته القتالية، وكلما استطاع الإنسان النفاذ إلى طبيعة السلاح الذى يقاتل به، إلى معرفته، عندئذ ممكن أن يحقق به أعظم النتائج التى تتجاوز الإمكانيات الموضوعة لهذا السلاح أصلا، كان ذكاء المقاتل المصرى يبرز واضحا عندما يستوعب المقاتلين المصريين أسرار سلاحهم فى وقت أقل من الوقت المعتاد، وبكفاءة أكثر من المتوقعة.

ويستلزم العمل فى قواعد الصواريخ اتساقًا تامًا وكاملاً بين أفراده، كل مقاتل يتمم عمل الآخر، فالعمليات دقيقة وأطول الاشتباكات هنا لا تستغرق إلا ثوان، لهذا فإن العاملين هنا تستشعر بينهم الجو الأسرى، إن طبيعة العمل الذى يقومون به تنسج بينهم روابط عميقة، أيضًا وجودهم فى ظل خطر واحد يهدد الجميع، بالإضافة إلى إحساسهم بأنهم مسئولون عن دفع طيران العدو عن

المواقع الأخرى لقواتنا، ربما كان لهذه العوامل جميعًا أثر محدد فى تكوين هذا الشعور الذى تلمسه لدى كل المقاتلين هنا، إنكار الذات، عندما التقينا بالمقاتل ثروت، وهو رجل هادىء جدا، عميق التفكير، لم يتحدث عن نفسه أبدًا، بل أصر على أن تلتقى بالمقاتل عادل، والمقاتل عادل أصغر منه سنًا، لكن ثروت راح يقص علينا ما قام به عادل ضد العدو الإسرائيلى خلال الغارات، لقد أصاب عادل العدو بضربات موجعة، وحصل على أرفع وسام عسكرى فى الجمهورية، نجمة الشرف العسكرية، ونوط الجمهورية من الدرجة الأولى، إن شخصية عادل تجعل المقاتلين فى وحدته كلا متكاملا، إن ثقتهم فيه لا حدود لها، وهذا كله جعلهم يحققون أفضل النتائج، إن الإنسان بعد التحاقه بوحدات الصواريخ تتغير فيه أشياء عديدة، وكما يقول عادل، فإنك لو قابلت إنسانًا ما قبل عمله فى الوحدات وبعد التحاقه بها، فبالتأكيد ستجده إنسانًا مختلفًا جدا، إن هذا الشعور القوى الذى أسميه إنكار الذات تجده فى حديث الرجال عن بعضهم، هاهو المقاتل سعيد، صاحب الخبرة العريضة بوسائل الدفاع الجوى، يتحدث عن مقاتلين آخرين، غير أن اسم عادل يتردد كثيرًا، كنموذج لارتقاء الإنسان المصرى إلى أحدث المستويات المعقدة فى العلم الحديث.

قبيل منتصف يونيو ١٩٧٠، طلب إلى مجموعة من ضباط الدفاع الجوى الشبان، قادة كتائب الصواريخ الاستعداد لمقابلة شخصية

كبيرة، فى هذه الفترة كان العدو الإسرائيلى يلقى بكافة ثقله بواسطة السلاح الوحيد الذى تبقى له فى مجال التفوق فيه، سلاح الطيران، وكان نشاطه قد انحصر فى هذه الرقعة الضيقة من الأرض التى تمتد بمحاذاة قناة السويس، والتى لا يتجاوز عرضها فى بعض المواضع ٢٠ كيلو مترًا، فى هذه الفترة كانت الجهود تبذل لبناء قواعد الصواريخ فى جبهة القناة، والعدو يستميت فى ألا يخرج هذا إلى حيز الواقع لدرجة أنه كانت طائرات الاستطلاع بمجرد أن ترصد خطوط بيضاء فوق الأرض تحدد موقعًا لبناء قاعدة حتى تجىء طائرات العدو لتلقى بأطنان القنابل، لدرجة أن أحد المشرفين على بناء القواعد قال ضاحكا، إن الحفر الناتجة عن انفجارات القنابل سهلت مهمة الحفر بالنسبة للعمال، وكان لا بد من اتخاذ أسلوب ثورى لردع سلاح الجو المعادى حتى يتم بناء القواعد، ومن هنا بدأت الاستعدادات لإدخال بعض كتائب الصواريخ إلى الجبهة لتعمل فى شكل كمائن، من فوق سطح الأرض، كانت المهمة خطيرة وتستلزم استعدادًا عاليًا كان المقاتل عادل أحد هؤلاء القادة الذين دعوا لمقابلة الشخصية المهمة، وفى الميعاد المحدد توجه مع زملائه إلى مكان الاجتماع.

.. بقينا ننتظر بضع دقائق وعندما فتح الباب لم أصدق عينى، كان الزعيم الراحل جمال عبد الناصر بنفسه. سلم علينا، ثم بدأ

الحديث وتناقشنا لمدة أربع ساعات كاملة. ولم يكن هذا هو الاجتماع الأخير، إنما أعقبه اجتماع ثان.

وبعد أيام تقدمت وحدة عادل إلى الجبهة. احتلت الموقع المحدد لها، ولم تنتظر طويلا حتى تبدأ الاشتباك مع العدو، فى إحدى الليالى رصدت أجهزة قواتنا المسلحة وجود طائرة استطلاع إلكترونية تعمل من وراء الخطوط، هذه الطائرة تحمل اثنى عشرة خبيرًا من خبراء التشويش على الرادار، والتصنت والاستماع. إلى جانب أجهزة بالغة التعقيد، وهذا كله يجعل إسقاطها أمرًا صعبًا، بدأ عادل يرصدها، وبسرعة كان يضع خطة قصيرة جدا. لقد طوع المقاتل عادل الأجهزة التى يعمل بها لظروف المعركة نفسها بحيث تمكن من التغلب على طائرة الاستطلاع هذه وإسقاطها، لم يستغرق الأمر كله إلا ثوان، كان إسقاط هذه الطائرة ضربة للعدو، ولم يسقط مثلها إلا مرة واحدة فى كوريا، أيضًا كان رمزًا لتفوق العقل المصرى على العدو، ورمزًا لاستيعابه أحدث الأجهزة العلمية، والطريف أنه وقت إسقاط هذه الطائرة، كانت هناك مظلة جوية لحمايتها. وعندما رأى أحد طيارى العدو وكان يقود طائرة ميراج، عندما رأى المقذوفات تنطلق فى اتجاه طائرة الاستطلاع الإسرائيلية، ظن أنه هو المقصود، فقفز من الطائرة وتركها تهوى، وهكذا خسر العدو طائرة ميراج بدون إطلاق مقذوف واحد عليها.

لم تكن آخر طائرة يسقطها المقاتل عادل ورجاله، صباح ١٩٧٠/٦/٣٠، كانت الوحدة متمركزة فى أحد المواقع، أن الأنتظار طويل وممل، يتمنى الجنود لو أنهم اشتبكوا بسرعة ويقول عادل ببساطة:

ـ حوالى العصر بدأت بشائر غارة.

وتتوقف الأذن قليلا عند كلمتى «بشائر غارة». إن هذه البشائر يعرفها المقاتلون جيدا من الأجهزة الخاصة بالتتبع، ظهرت الأهداف المعادية، انتظر عادل، أصابع المقاتلين فوق زراير الإطلاق، والعاملون على الأزرار، كأنهم عازفون مهرة على أصابع بيانو كهربائى. دقة متناهية وتدريب عالى المستوى، وكانت الأهداف تقترب، وبدأت العيون معلقة بعادل، لماذا تأخر، لماذا لم يعط أمر الإطلاق مع أن الأهداف دخلت وأصبحت على مسافة قريبة جدا، لو أنه ثقتهم مهتزة فى قائدهم لفعلوا ما قد يؤدى إلى كارثة، لكنهم يعرفون عادل جيدًا، يثقون به، وبرغم هذا فإنهم يتساءلون يقلقون، لماذا لم يعط أمر الأطلاق؟

ـ اضرب.

وهدرت القذائف، تشق الفراغ تجر خلفها ذيلا طويلا من النيران، واصطدمت القذائف بالطائرة التى تناثرت أشلاؤها فوق الأرض المصرية، تنازعتهم رغبة قوية فى الخروج ليروا نتيجة عملهم، وفى الوقت الذى يجب أن يبقوا فيه داخل أماكنهم.

بعد دقائق، جاءت الأخبار جعلتهم يرقصون فرحًا، أول طائرة فانتوم تسقط فوق الأرض المصرية.. بعد ربع ساعة اشتبكوا مع العدو، وأسقطوا سكاى هوك، وتوالت الطائرات.

- طائرتان فانتوم.

- طائرة ميراج.

- طائرة سكاى هوك.

هذه قائمة بما أسقطته وحدة عادل حتى أغسطس ١٩٧٠، وعندما وقف الرجال ليحموا العبور فى حرب أكتوبر، فإن خبرة ثمينة تجمعت لديهم، وخلال أيام حرب أكتوبر أسقطت الوحدة عشرات الطائرات.

عندما تنظر إلى عادل، تراه هادئًا جدا، بل إنه عندما يتحدث إليك فإنه يخجل جدا، من الحديث عن نفسه، لقد تعرفنا إليه من خلال زملائه، من خلال قادته، من خلال جنوده العاملين معه، من العواطف الإنسانية والروح القتالية عالية المستوى، عادل فى بداية الخامسة والثلاثين فى بداية عمره عاش فترة فى جنوب السودان حيث كان يعمل والده، ثم جاء إلى مصر، وحصل على التوجيهية، ودخل الكلية الحربية، ومنذ تخرجه وهو متخصص فى الدفاع الجوى، هناك أربعة أشقاء له منهم طيارات فى القوات الجوية،

ومهندس، وطبيب، عادل متزوج وأب أيضا، ابنه عصام، ابنته منال، وكلاهما دون العاشرة، عندما يسأل عادل ابنه عما يتمناه إذ تكتمل رجولته، فيقول ببساطة «نفسى أوقع طيارة فانتوم».

* * *

فى فجر التاريخ هاجم الهكسوس مصر، وعندما جاءوا جحافل همجية كان معهم سلاح جديد هو العجلات الحربية، استطاعوا بواسطته التغلب على الجيش المصرى فى البداية، كانت العجلات الحربية اختراعًا حديثًا وقتئذ له خطورته، يقوم بعمل المدرعات فى عصرنا هذا، بالنسبة لعملية الاقتحام، والهجوم السريع الصاعق، ولم يستقر الهكسوس فى مصر، ولم يستمروا بها، بدأت مقاومة أجدادنا الضارية لهم، وكان أحد جهودهم الرئيسية استيعاب أسرار السلاح الجديد، وبسرعة تم تصنيعه فى أكثر من قرية وتطويره، وفى النهاية أصبح هناك جيش مصرى عظيم يقوده أحمس الأول يضم قوة كبيرة من العجلات الحربية أخرجت الهكسوس من أواريس (صان الحجر حاليًا)، البلدة التى اتخذوها مقرًا لحكمهم، وطردهم الجيش المصرى حتى أقصى الشرق.

دائمًا هذه ظاهرة تتكرر كثيرًا فى التاريخ المصرى، أن يأتى العدو القادم لتهديد أمن مصر بسلاح جديد، أو تكتيك حديث، بواسطته يمكنه إحراز نصر مؤقت، لكن سرعان ما ينفذ الإنسان المصرى إلى

أسرار السلاح الجديد، نجد هذا فى مثال العجلات الحربية التى جاء بها الهكوس، والمدفعية الثقيلة التى جاء بها السلطان العثمانى سليم الأول عام ١٥١٧، ثم أسلوب القتال الحديث الذى جاء به نابليون من أوروبا خلال حملته على مصر، المربعات التى تقاوم الهجوم من كل جانب، وعلى الرغم من هذا نلاحظ بعد سنوات أن المصريين استوعبوا أحدث أنواع الأسلحة فى الجيش المصرى الذى أسسه محمد على، وتمكنوا من تهديد أوروبا نفسها، واستطاع الأسطول المصرى الذى كان بحارته كلهم مصريين أن يهدد الدول الاستعمارية وقتئذ، ولولا الخيانة التى أودت به فى مياه نافارين وتآمر الدول الأوروبية وقتئذ على مصر، لتغير وجه التاريخ فى حوض البحر المتوسط، وهكذا لعب السلاح دائمًا دورًا غريباً فى صراع الإنسان المصرى ضد أعدائه.

تمثل الحرب الإلكترونية التى خاضتها قواتنا المسلحة ضد العدو الإسرائيلى، والتى تعد أول حرب فى التاريخ تستخدم فيها الوسائل العلمية الحديثة على نطاق واسع، تمثل تطورًا مهمًا من التطورات التى قام بها المقاتل المصرى، وهذه الحرب سوف يصبح لها آثارها البعيدة على المجتمع المصرى فى المستقبل، لأن بعض الوسائل التكنيكية الحديثة جدا استخدمتها قواتنا المسلحة قبل أن تعرفها الحياة المدنية، ومن صفوف القوات المسلحة سوف يخرج الاف

الفنيين المدربين على أجهزة حديثة بالغة التعقيد لا غنى للحضارة العصرية عنها، وهكذا تتم عملية التفاعل بين المجتمع المصرى والقوات المسلحة، وواسطة هذا التفاعل هو الإنسان المقاتل، فى أحد مواقع الحرب الإلكترونية بالجبهة تجد العاملين من جيل الشباب، كلهم فى عشرينات العمر، حتى قائد الموقع، إنه شاب فى السادسة والعشرين، يعكس حديثه ثقافة علمية واسعة، العمل الذى يشرف عليه علمى بالدرجة الأولى، تسبقه دراسات طويلة معقدة، واطلاع على علوم آكثر، بحيث يتسع الذهن الإنسانى لمعارف أكثر وأعمق، إن المقاتل فاروق يعمل على جهاز حديث جدا، يقول «إننى أعمل على الجهاز، أتفهم طريقة عمله، صحيح أى تلف فيه يقوم بالإصلاح المقاتل سمير، أو المقاتل محمد، لأنهما درسا تركيب هذا الجهاز فى الكلية الفنية العسكرية، وتعاملا مع قطع الجهاز جزءاً، جزءاً لكن هذا لا يعنى بالنسبة لى التوقف عند مستوى معين من العمل، كل يوم يمضى يجعلنى أنفذ إلى أسرار جديدة فى الجهاز، أرتبط أكثر به.. وفى لهجة المقاتل زيدان نلمح أثرا من لهجة ريفنا، درس فى الأزهر، جند بعد عام ١٩٦٧، وتم تدريبه على استعمال جهاز خاص بمقاومة التشويش، إن قادته يتحدثون على المهارة التامة التى يعمل بها على هذا الجهاز، استخدامه المثالى له، ويطول الحديث عن حيوية العقل المصرى، وتفوقه والمواقف التى واجهت الرجال خلال الحرب وأثبتت هذا، إلى جانب آلاف الأدلة من

تاريخنا الطويل، وكما يقول المعلقون العسكريون العالميون، «لقد استخدم المصريون الأسلحة الحديثة خلال حرب أكتوبر ببراعة وتفوق...»

* * *

مكان ما من الأرض المصرية، فوق الرمال والمرتفعات، تبذل طاقة عمل تفوق الجهد البشرى العادى بكثير، خلال السنوات ما بين ١٩٧٠ و ١٩٧٣، شهدت هذه الرمال جهدًا فائقًا بذل فى التدريب، لم يتوقف لحظة واحدة، فى أعقاب النكسة حققت قواتنا توازنا مثاليًا بين ما يمكن تسميته، «الكم» و«الكيف» المطلوب تدريب أعداد كبيرة جدا من المقاتلين على أسلحة حديثة ومعقدة جدا، المطلوب أن يتقن كل مقاتل استخدام الأسلحة الحديثة، وتطلب هذا تطبيق الطرق المختلفة، جميعها فى وقت واحد، الوسائل التى يمكن من خلالها استيعاب أحدث أنواع الأسلحة، فى الوقت نفسه تدريب هذا العدد الضخم من المقاتلين، هذا ما حدثنا به المقاتل الحسينى أثناء انتظارنا فوق مرتفع من الصحراء الغربية، نرقب من بعيد «أرتال» مشاتنا الميكانيكية، خلال تحركاتها، من بعيد تثور دوامات من الرمال تثيرها المركبات المجنزرة التى تحمل قواتنا من جنود المشاة، المركبات تتقدم بسرعة تقلب حشا الصحراء. كل منها تحيطها أمواج كثيفة من الرمال تشبه بحرًا من القطن الأصفر، أو زبد الموج، ما

نراه أمامنا فى هذه المناورة يمثل أهم المتغيرات التى طرأت على قواتنا المسلحة بعد عام ١٩٦٧، ميكنة المشاة ثمة تحولات كبيرة وجذرية طرأت على الظروف التى يعمل بها جندى المشاة، تحولات فرضتها طبيعة الحرب الحديثة، حيث يعتبر عامل السرعة من أهم العوامل وأخطرها فى كسب المعركة، خاصة فى عمليات الالتفاف والتطويق والاندفاع عبر خطوط العدو التى تتم عبر الصحراء، من هنا كان لا بد من تطوير مستمر فى وسائل نقل المشاة، وسائل تؤمن السرعة، وسلامة المقاتلين، وهكذا أصبحت مشاتنا الآن محمولة فوق عربات مجنزرة، وهذا ما يطلق عليه ميكنة المشاة، إن المستوى القتالى لقواتنا كان يتقدم يوما بعد يوم من خلال هذه التدريبات، فوق الصحراء تميل الشمس إلى المغيب، يمتزج لون الصحراء الأصفر بأشعتها الحمراء، المركبات مندفعة تقلب الرمال، تسد الفراغ اللا متناهى فوق الصحراء، خوذات الجنود تبدو قاتمة وسط ذرات الرمال الكثيفة، صوارى أجهزة اللاسلكى، فوهات المدافع البارزة المستعدة للالتهاب فى أية لحظة، الآن يبدو صوت الجنزير واضحًا، بينما تتغير الصورة تمامًا مع ذهاب آخر ضوء من النهار يحل ظلام كثيف يسد الأفق، النجوم وحدها تلمع فى الأعالى، بينما تتحرك وحدات المشاة الميكانيكية فوق الرمال، كتل ضخمة من الحركة فى لون العتمة، وحوش خرافية لم تصنف بعد ولم تطلق عليها أسماء، تحمل الموت والدمار إلى قلب العدو ومواقعه، إن

القتال الليلى يتميز بخصائص عديدة أهمها المفاجأة، وإخفاء التحركات، ويلعب العامل النفسى دورًا مهمًا فى القتال الليلى، فعندما يفاجأ العدو باقتحام مواقعه، ينتشر الرعب بين أفراده، يسوده الاضطراب، هذه خبرة حرب «أثبتتها عمليات وحداتنا الخاصة التى كانت تعبر القناة خلال حرب الاستنزاف، عملت قواتنا على تطوير هذه الخبرات خلال التدريبات والتركيز على هذين العاملين القتال المتلاحم، القتال الليلى، تحقيق أكبر قدر ممكن من السيطرة على الوحدات الميكانيكية أثناء التحرك الليلى، حيث يعتبر أصعب عاملين فى القتال الليلى، هما القيادة والسيطرة أيضا احتفاظ الوحدات بخط سيرها الصحيح، وتستمر عربات المشاة المجنزرة فى التقدم عبر الرمال الكثيفة، بينما ترسم طلقات الإشارة خطوطًا حادة عبر الظلمة تشير إلى اتجاه الهجوم، وبين العربات تتدفق المدرعات تهدر أنها تتقدم، وتقوم بعمليات تدعيم المشاة الميكانيكية، وتتدخل لتدمير أى هدف قد يعترضها.

أذكر من هذه المناورة وجهاً من الوجوه العديدة للمقاتلين المصريين، إنه المقاتل الحسينى أحد النماذج العظيمة لمقاتلى مصر، ترى فى حديثه آثار ثقافة عريضة، هذه الثقافة تملى عليه سلوكًا رقيقًا وحازمًا تجاه رجاله، يعرفهم جميعًا، بدءًا من الجندى الذى يقف فى نقطة الشرطة العسكرية على الطريق المؤدى إلى موقع التشكيل، وحتى أعلى المستويات. يركز دائماً فى حديثه معهم على

اهمية الاطلاع، هناك كتب معينة بالنسبة للمقاتل، لكنها كثيرًا ما تكون ضخمة تستوعب وقتًا لا وجود له فى المشاغل العديدة هنا، أن الحسينى يقوم خلال أوقات فراغه بتلخيص هذه الكتب، بحيث تصبح سهلة فى متناول المقاتلين كلهم، على اختلاف مستوياتهم، إن الذكاء والعمق الذى نلمحه فى الحسينى يخفيان مجهودًا شاقًا وصعبًا فى التحصيل، إلى جانب دراساته العسكرية عالية المستوى، فقد حصل على دراسات جامعية أخرى، بكالوريس تجارة، ليسانس آداب، ماجستير فى الإحصاء.. أمامه، يتساءل الإنسان أين رأيته من قبل، أين قرأت عنه؟ وعلى الفور يندفع إلى الذهن تفسير ليس هو من قرأت عنه، إنما نفس الملامح، عرفناها فى شخصية أخرى قرأنا عنها كثيرًا، إنه الشهيد عبد المنعم رياض، وجدته فى أكثر من مقاتل، أكثر من قائد، يتحرك ممثلا فى العديد من الرجال، إنهم رجال مصر..

* * *

فى الفراغ يدور الإيريال الضخم لمحطة الرادار، لكن رؤية الأهداف نفسها تتم هنا فى غرفة صغيرة جدا مظلمة تماما، لا يلمع فيها إلا شاشة مستديرة، الغرفة ضيقة مليئة بآلاف الصمامات والأسلاك، والأجهزة بالغة التعقيد، أمام الشاشة يجلس العامل على الجهاز يقرأ الأهداف، يحدد مواقعها، يبلغها إلى القيادة العمل

يتطلب يقظة حادة، خلايا الإنسان جهازه العصبى كله يندمج فى الجهاز، أية نقطة بيضاء فوق الشاشة المستديرة تساوى طائرة معادية تحمل الدمار والموت، لابد من رصدها والتبليغ عنها، يجب أن يستمر العمل تحت أقسى الظروف، وإذا أصيب الجهاز يجب إلا يفارقه العاملون عليه، إنما يستمرون فى إصلاح العطب، النفاذ إلى هذه الأجهزة المعقدة والدقيقة فى إحدى الغارات بدأ العدو فى استخدام أحد أساليب الحرب الإلكترونية ضد وحدة رادار مصرية ورأى المقاتل الذى يعمل على الشاشة غشاوة تحجب عنه الرؤية، لم يكن حديث الخبرة بأجهزة الرادار، كان خبيرًا بها، عالما بأساليب التشويش التى يمكن للعدو أن يتبعها، وفى لحظات استطاع بواسطة أسلوب معين أتقنه وتدرب عليه من قبل أن يتغلب على التشويش، ويحدد أهداف العدو الجوية ومواقعها، من ناحية أخرى شن العدو هجمات جوية مركزة ضد وحدات الرادار المصرية سواء خلال حرب الاستنزاف، أو حرب أكتوبر، استخدم أحدث الأسلحة الأمريكية ضدها كصاروخ شرايك، إن الرادار يمثل عيون القوات المسلحة، أجهزة إنذارها، والمقاتل فرغلى أحد هذه العيون، بعد تخرجه من هندسة أسيوط كانت أمامه الفرصة لكى يحقق أملا قديمًا، وهو أن يصبح مقاتلا من رجال القوات المسلحة، هذا الأمل تحول إلى رغبة قوية بعد يونيو ١٩٦٧، تحركت فى نفسه هذه العوامل الأصيلة التى

تـربط الإنـسـان بـأرضه ووطنـه، كـالـعـديـد من شبـاب مـصـر عـرف الطـريق إلى القـوات المسلحـة من خلال التحـاقه بـالكلية الفنـية العسكرية، هـذا المعهد العلمى المهم الذى أسهم فى تغذية جيشنا بأفضل العناصر الدارسة على مستوى علمى راق، أخيرًا جاء فرغلى إلى جبـهـة الـقـتـال، بـعـمل فى إحـدى وحـدات الإنـذار، فى إحـدى الغارات القى العدو عددًا من القنابل الزمنية، وزحف المقاتل فرغلى فوق الأرض ليصل سلكًا مقطوعًا، كان يعلم بوجود قنابل زمنية، بوجود الخطر، لكن.. كان لابد للجهاز أن يستمر فى عمله، واستطاع فعلا أن يصل السلك مع أحد المقاتلين، وأثناء العودة استشهد المقاتل أحمد، إن الحـرب علمت فرغلى الكثيـر على المستوى الإنسـانى والعلمى، هنـاك أدرك المعنى المبـاشـر للوطن، والأرض، والصدام المسلح ضد العدو..

أما بسيونى فنموذج آخر للإنسان المصرى فى المواجهة، إنه عامل مـدنى بـالقوات المسلحـة يعيش فى قلب مـحطات الرادار، تـعرض لـغـارات الـعـدو، شـارك الجنـود فى حـمل الـذخيـرة، فى إصلاح المحـركات التى تـدير مـحطات الـرادار، لـديه خبـرة طويلـة عمـرها عشـرون عـامًا، إنه لا يـصـلـح المـاكينـات فـقـط، إنمـا يـختـرع أجـزاء صغيرة من ظروف العمل، تيسره، يمكنه إصلاح أى عطب بإمكانيات مـحدودة جدا تضيع قطع الغيار، قام بعمليات الإصلاح فى ظروف مـختلفة، تحت الغـارات المختلفة التى لم تهدأ، فى عقله العديد من

المشاريع والأفكار الجديدة التى تتعلق بعمل ماكينات الديزل وتطويرها، يتحين الفرصة حتى يبرزها إلى حيز الوجود، لقد أتاحت له القوات المسلحة العديد من الفرص خلال عمله بالماكينات، إنه يقف مع بعض رجالنا حول جهاز الرادار، حياتهم ارتبطت به، خلاياهم مرتبطة بصماماته وأجهزته، يتحدثون عنه بفهم وحب، وكأنهم يتحدثون عن أحد البشر، بينما يستمر الهوائى الضخم فى الدوران، وبه تبقى عيوننا مفتوحة أبدا.

* * *

من أغرب العلاقات التى نمت فى جبهة القتال خلال حرب الاستنزاف، أو خلال فترة التدريبات والاستعدادات، العلاقة بين المقاتل والسلاح يتسلم طاقم الدبابة المركبة، أيضا نفس الشىء بالنسبة لرجال المدفعية، أو المقاتلين بالنسبة لأسلحتهم الخفيفة سواء أكانت بنادقهم العادية أم مدافعهم الخفيفة، وبمجرد استلامها، أيا كان نوع السلاح، تبدأ هذه العلاقة بين المقاتل وسلاحه، بين الذات والموضوع، بين الروح والمادة، إن الأفراد العاملين على دبابة مثلا، يبدأون حياتهم العسكرية يتلقى السلوك العسكرى والأسس العامة المشتركة بين كافة المقاتلين، ثم يوزعون على مدارس المدرعات، هناك يبدأ تعرفهم على الدبابة. ثم التدريب عليها، إن التدريب يستغرق فترة زمنية معينة، طبعًا ليست قصيرة، أمكن

اختصارها فى قواتنا المسلحة بالذات بعد دخول شبابنا المؤهلين، استوعبوا برامج التدريب فى فترات أسرع وأقصر، فى الوقت نفسه الارتقاء بمستوى التدريب، إن التركيز على التدريب عامل مهم، هذا يوفر قدرة قتالية عالية، يظهر أثرها المباشر وقت المعركة، بعد تمام الدراسة يوزع المقاتلون على التشكيلات المدرعة المقاتلة، وفى احتفال مهيب يتم تسليم المدرعات الجديدة إلى المقاتلين، تبدأ صلة طاقم المركبة بها، البشر بالمعدة، تبدأ الدبابة مرحلة من عمرها، حياة جديدة، معارك ضد عدو لا بد من تدميره، المطلوب من طاقمها الانتصار والحفاظ على هذا الحصن المدرع المتحرك...، إن الدبابة تحوى اهتمامات الطاقم، همهم كله، دائمًا عند توزيع الأفراد على الدباب يراعى أن يبقوا دائمًا معًا، إن الملجأ الذى ينامون فيه واحد، أوقات فراغهم يقضونها معًا، يقول أحد المقاتلين على المدرعات، إنهم لا ينسون دبابتهم فى أوقات الراحة، إنهم لا يبتعدون عنها، يقضون أوقات راحتهم إلى جوارها، وأحاديثهم فى وقت فراغهم تدور حول الدبابة، حالة الموتور، المدفع، ملاحظاتهم على عملها، كلما امتدت العلاقة بين الإنسان والسلاح يعرف الإنسان معرفة جيدة، سائق الدبابة يعرف تمامًا تفاصيل حركتها، أيضًا الرامى، يعرف كل منهم العطب الذى يمكن أن يطرأ على أى جزء فيها، كيف يعالجه، أيضا يحفظ كافة التفاصيل الخاصة بمعالجتها لون هذا المسمار، طلاء الجدار هنا، زجاج التليسكوب، إن

المقاتلين يشعرون أن الدبابة اخذت منهم وأعطتهم، بحيث إنهم لو فارقوها إلى دبابة أخرى لشعروا بالغربة. لهذا حرصت القيادات على أن يظل طاقم كل معدة ملتصقا بها، إذا ذهبوا إلى مناورة، ذهبوا بها، أيضا إلى الجبهة، إلى القتال، إن حياتهم ترتبط بدروع الفولاذ. وحياة الآخرين، كما أن المعايشة المستمرة للدبابة تجعل الارتباط بها وثيقًا ورائعًا.

ويطلق البعض على أسلحتهم أسماء محببة، أحد جنود المدفعية يسمى مدفعه (مجدى) اسم ابنه، آخر يضع صورة ابنته داخل الدبابة، بعض الجنود يقبلون الدانات قبل أن يزجوا بها داخل المدافع، ويهمسون بألفاظ غامضة أثناء تقبيلها، ربما قراءة اسم الله، ربما رجاء أن تنزل الدانة فى موضعها تمامًا، أذكر أحد جنودنا من حملة الصواريخ المضادة للدبابات، وأحد من أبرع الرماة على هذه الصواريخ رأيته يطلق صاروخه، وخلال الثوانى التى استغرقتها رحلة الصاروخ حتى الدبابة المعادية لم يكف عن مناجاته بألفاظ حارة ورقيقة، يرجوه أن يصيب هدفه، وغاص الصاروخ فى جسم الدبابة الباتون ليفجرها، هذه ظاهرة غير موجودة فى كافة جيوش العالم إنه الإنسان المصرى إذ يبعث الحياة فى السكون، ويحر ك الجماد، أذكر المقاتل تعلب وهو يشير إلى مدفعه المضاد للدبابات، دا روحنا فيه». ملخصًا بذلك العلاقة بين السلاح والإنسان.

وخلال تدفق قواتنا المسلحة إلى سيناء فى أكتوبر ١٩٧٣، وخلال حرب الاستنزاف، تسمع حديث المقاتلين عن الصواريخ المضادة للطائرات لهجتهم وإعجابهم، يذكرك بلهجة أبناء البلد إذ يبدون إعجابهم واحترامهم بفتوة شهم، أو ممثل مشهور، أو شخص شجاع، علاقة خفية بين الإنسان المحارب والسلاح الذى يزود عنه، علاقة تجدها بين رجال المدرعات ودباباتهم، بين الطيارين وطائراتهم التى تحتويهم فى الفضاء.. أمام الرجال وأسلحتهم أذكر صيحات المقاتلين إذ يتخرجون فى معاهدهم العسكرية.

«لا أترك سلاحى قط، حتى أذوق الموت..» خلال العام الأخير السابق على حرب أكتوبر احتدمت معركة قاسية على ضفتى القناة، ما تردد خلالها هدير البولدوزرات، ضربات المعاول، كل ما يصاحب بناء التجصينات الهندسية، اللازمة خلال المواجهة المقبلة، وخلال هذه المعركة بدا واضحًا جهد العقل المصرى وحيويته فى مواجهة جهود العدو الإسرائيلى فى القطاع الشمالى خلال العام الأخير، كان يمكن لأى زائر أن يرى بوضوح التحصينات الهندسية الضخمة التى اقامتها قواتنا المسلحة، والتى تخدم أغراضًا عدة، وهذه التحصينات تواجه العدو الإسرائيلى فى المجالين الدفاعى والهجومى، عند ذهابى لأول مرة كى أرى هذه التحصينات تداعى إلى ذهنى حديث أحد المهندسين، الذين اشتركوا فى بناء السد العالى، قال إنه أثناء فترة بناء السد قبل ظهور الجسم الضخم فوق

سطح الماء، كانت المعالم فى المنطقة تتغير بسرعة، يغيب الإنسان عن موقعه أربعة أيام أو ثلاثة، ثم يعود إليه، فيجد طريقًا جديدًا شق، ومرتفعًا أزيل وآخر أقيم، ومساحة غمرتها المياه إلى الأبد، وفى أعوام ١٩٧٠ و ١٩٧١ و ١٩٧٢ و ١٩٧٣ اختلف شكل الجبهة من ناحية المنشآت والتجهيزات والطرق اختلافًا كبيرًا من عام إلى آخر، عند اقتراب سيارتنا من ضفة القناة، بدت أولى المصاطب، كأنها تكوين طبيعى فى الأرض، لكنه فى الحقيقة جهد بشرى ضخم، نتاج مجسد لحيوية العقل المصرى، وقدرته على الخلق بعد قليل بدا بروز آخر من الأرض، وأشار المقاتل أبو سعدة صاحب فكرة إنشاء عدة المصاطب..

- من فوق سترى سيناء من موقع مختلف تمامًا، وستعرف كيف أحبطنا كل جهود العدو التى بذلها فى إقامة تحصيناته الدفاعية بعد وقف إطلاق النار..

لقد انتشرت هذه المصاطب على امتداد الجبهة، وهكذا حققت قواتنا تفوقًا كبيرًا على العدو، أبطلت فاعلية تحصيناته وتجهيزاته الهندسية، أيضًا شلت حركته وقدرته فى قطاع واسع، وبدا هنا عجز العدو عن الرد، يبدو هذا فى كميات الرمال الضخمة التى يدفع بها هنا وهناك ومحاولاته ستر الطرق التى تتحرك عليها عرباته وقواته، بدت التجهيزات كأنها سدود عالية صغيرة، برزت فوق الأرض بقدرات رجالنا، وإمكانياتهم.

أذكر أننى أطلت النظر مع زميل الخطر. ورفيقى فى مواجهة الخطر، مكرم جاد الكريم، المصور الشجاع إلى الضفة الشرقية وصحراء سيناء التى بدت مساحة كبيرة منها، وشريط نحيل أسود يصل إلى قلب السماء، إنه الطريق الأوسط، وبدت سيناء بمرتفعاتها والمدقات الرملية، وتحصينات خط بارليف، كل هذا كأنه ماكيت ضخم يخفى غموضًا، يدفع إلى الذهن بتساؤلات عن احتمالات المستقبل، وأمنية استطعنا أن نرى هذه المصاطب من الناحية الأخرى، من فوق الضفة الشرقية.. ترى كيف تبدو.. ولم يمض الكثير حتى أصبحت الأمنية فى حيز الواقع، وما أقل الأمانى التى يرغبها الإنسان فى حياته، ثم تخرج مجسدة.. بالضبط كما رغب..

الاقتحام

مقدمة

الله أكبر

الله أكبر

الله أكبر كبيرًا، والحمد لله بكرة وأصيلا، نصر جيش مصر وحده، وهزم الصهيونية وحده..

يا رجال مصر، يا رجال مصر جاء اليوم الذى نهب فيه لتحرير أرضنا سيناء العربية إن سيناء كانت وستبقى دائمًا مصرية قبل أن يخلق الله الدين اليهودى..

إننا نقاتل عن حق، إننا نقاتل لتحرير الأرض من الاستعمار الصهيونى، إننا نقاتل حتى لانكون شعبا من اللاجئين فى الصحراء الغربية، هذا ما تريده لنا الصهيونية، إننا نقاتل لنثأر للذين استشهدوا عام ١٩٦٧، بل قتلوا وهم أسرى حرب، فعل هذا بهم جيش الدفاع الإسرائيلى، لم يراع قوانين حرب.

إننا نقاتل لنثبت للعالم أجمع أن فى مصر رجالا قادرين، مقاتلين ليقطعوا كل يد تمتد إننا نقاتل لتحقيق السلام، إننا نقاتل لتستمر الحياة، إننا نقاتل فى سبيل مصر..

يا أبناء مصر.

ليس أمامنا إلا أن ننتصر بإذن الله، أن ننتصر لتعيش مصر، كما عاشت عبر السنين، ولنحقق نصرًا إلى تاريخنا.

يا أبناء مصر

لأول مرة منذ زمن طويل نهب من الخنادق لنلبى نداء الهجوم، ونضرب الضربة الأولى، تقدموا، تقدموا، تقدموا...

(من نداء قائد الفرقة الثانية إلى رجاله

ظهر السبت ٦ أكتوبر)

على امتداد الجبهة شمخت القواعد، كأهرامات صغيرة، ومنها انطلقت ألسنة اللهب تدفع الصواريخ لتحمى عبور قواتنا إلى الشرق، وتزود الخطر عن سمائنا الفسيحة المنبسطة الصافية.

.. طوابير الدبابات والعربات المصفحة، والسيارات المحملة بالصواريخ، تتقدم على كل الطرق المؤدية إلى قناة السويس، العملية

تتم فى دقة تامة، وجوه الرجال تعكس هدوءًا مثاليًا، ونشوة، ورغبة تحققت، وواقعًا جديدًا شيئًا فشيئًا خلال الطريق إلى القناة، من خلال الروح المعنوية المرتفعة للرجال ترى الجبهة وكأنها رئة ضخمة تتنفس النصر.

فوق الناقلات الضخمة يلوح المقاتلون بأيديهم حاملين أسلحتهم، أيدى المقاتلين المتمركزين فى بعض المواقع الثابتة فوق الضفة الغربية، إن صيحة «الله أكبر» ترج الفراغ كالهدير تحية للمقاتلين المنطلقين إلى سيناء، شكل جديد من الحركة لم تعهده الجبهة من قبل، فتح الطريق إلى قناة السويس، أصبح ممهدًا بالدم، بعد أن كان الاقتراب من القناة يستلزم المشى بحذر، والانحناء فى بعض المواضع حرصًا من قناصة العدو، بعض الفلاحين المقيمين فى القطاع الريفى بالجبهة يطلقون الزغاريد، يكبرون مهللين لقواتنا، الكل مبتهج، عيد ضخم.

قال الضابط المرافق يسأل أحد الجنود:

- من أين المعبر المؤدى إلى...؟

(المعبر).. لفظ وقع فى الأذن موقعًا جديدًا، كأنه النظرة الأولى إلى أرض جديدة لم تكتشف من قبل، الوصول إلى مدينة غريبة كل ما فيها يستحق الرؤية والتأمل، كأنه المولود الجديد يطلق الزفير الأول، (المعبر)، الطريق رملى يميل نحوه، ينحدر انحدارًا خفيفًا،

نزل بعض الجنود من فوق عربة ذخيرة تستعد لتأخذ دورها إلى العبور، تعانقنا، أخذنى التأثر، وبدأت أستسلم لانفعالاتى بلا أى موانع على الإطلاق كأن الجنود يتعانقون، والفلاحون يعانقون الجنود، والصحفيون يعانقون الجنود، والصحفيون يهللون ويكبرون، هاهى الضفة الشرقية، تستسلم فى أمان بعد أن فارقتها الأقدار الغريبة، أقف على حافة القناة مباشرة المعبر يمتد أمامى، أتلفت حولى لأستوعب الأشياء كلها، القناة العريضة التى لم أتصور أنها بهذا العرض، زرقة المياه، انفجار الدانات القريبة، وجه جندى مصرى يلوح لنا من فوق سيارة مجنزرة، تندفع إلى الشرق، الرجال ماضون لقتال العدو، وتقع عينى على تبة مرتفعة وأزعق من أعماق روحى.

الله أكبر.. الله يا مصر..

رأيت العلم والعمر والوطن يرفرف فوق دشم بارليف...

* * *

مقاتلونا يتحركون فوق المعابر بثقة شديدة، إن قبضتنا تحكم حول عنق العدو، واليوم هو الأحد، ثانى أيام القتال، الدوى لايتوقف، الانفجارات لا تنقطع..

- إنها مدفعيتنا تضربهم فى العمق..

ـ هذه دباباتنا..

لقد خرجت مدرعاتنا من مواقعها الثابتة إلى المتحركة، لقد انتقلت مدافعنا من الدشم الثابتة، إلى الوثبات، إلى الأمام، إلى الشرق، إن الرجال الذين ينظمون المرور فوق المعابر يبدو على وجوههم فرح ممزوج بجدية. أرى ليلة تعم فيها البهجة ، ليلة عرس، وأقارب العروس ينظمون جلوس المدعوين والقادمين ويروجون ويجيئون، على وجوههم نفس هذه الجدية،

تبدو دشم العدو، تحصينات بارليف، كثيرًا ما تأملتها من الغرب، تساءلت طويلا متى يجيء اليوم الذى نقف فيه فوق هذه التحصينات، تساءلت: ما الذى يوجد بداخلها، كيف تبدو؟؟ والحقيقة أنه مهما شطح بى الخيال، وأعترف أن خيال لا حدود لجموحه، فلم أتصور مطلقًا أن هذه التحصينات كما رأيتها من الداخل، كل منها يشبه مستعمرة صغيرة فيها كل ما يحتاجه الأفراد، سينما، مكتبة مخازن متسعة للذخيرة فى الأدوار السفلى، وكميات هائلة من الثياب، مستودعات أسلحة، أماكن رمى، كتالوجات مليئة بالصور العارية، سيور تتحرك عليها المدافع الرشاشة لتضرب نيرانها من خلال المزاغل فيصعب رصدها.

نصل إلى نهاية المعبر، تتخذ السيارة وضعًا جادًا لتخترق الساتر الترابى، نزلنا لامست أقدامنا سيناء، ورأينا التاريخ والأصالة،

والحضارة، ومصر تنفض عن نفسها الرمال التى ظلت تنطيها ست سنوات، تنفض جراحها، ولطول ماتعودنا أن نرى خلال دراستنا مصر امرأة جميلة ملفوفة بعلم، فلم يفارقنى إحساسى بأن هناك وجهًا ضخمًا يسد الأفق بحجمه وجماله وعظمته، ينظر راضيا إلى ما فعله الأبناء.

لفت نظرى سمك الساتر الترابى، وضخامته، وكانت مياه القناة المحاذية للأرض كالرغاوى الضخمة، لكثرة ما أذيب فيها من الرمال الناتجة عن فتح الثغرات خلال الساتر الترابى، على امتداد القناة، ترفرف أعلام عديدة فوق الدشم والنقاط القوية لتحصينات العدو فى خط بارليف، إنها أعلام النصر التى رفعتها قواتنا، إن رؤية العلم تبعث فى النفس ثقة، امتلاء بالزهو، ينظر القاتلون بفخر إلى علم الوطن، تسابق كل منهم لحمله أثناء العبور، يوجه أحدهم نظره إلى الشمال، يصيح من أعماق القلب:

- الله .. رفعنا علما هناك فوق برج الملاحظة.. كان بودى أن أرى علمنا فوق هذه النقطة بالذات..

وتخليت عشرات الليالى التى مضت عليه فى خندقه فوق الضفة الغربية ، يرى العدو فوق الضفة الشرقية، الآن.. حان للجراح أن تلتئم، وللرغبات المكبوتة ان تخرج إلى حيز الواقع.. وأخطو فوق سيناء، أستدير كلما مشيت، أنظر إلى الخلف، أرى الضفة الغربية

من فوق الضفة الشرقية، أدوس رمال سيناء الغزيرة الناعمة، من أتاح لى هذا الآلاف المقاتلين من أبناء وطنى، بذلوا العرق والدم وعبروا الشظايا والموت والخطر، رأيت طابورًا من أسرى العدو حوالى تسعة عشر شخصًا مختلفى الملامح، كل منهم مربوط من يديه وراء ظهره بحبل خاص، يقودهم جنديان مصريان، عشرات السيارات المدرعة الإسرائيلية التى تتحرك فوق أرض المعركة، والتى بدأت قواتنا المسلحة فى استخدامها فورًا، رأيت بعد لحظات من وصولى إلى سيناء عشر دبابات أمريكية من طراز باتون، ألوانها القاتمة، الطلاء الحديث يكشف عمرها القصير، الحروف البيضاء المكتوبة فوق الأسلحة كما هى، الحواف صلبة، حادة أقوى أنواع الدبابات فى العالم، قهره رجالنا، وعندما واجه الإسرائيليون الموت، فضلوا الاستسلام، نزلوا ورفعوا أيديهم، بعضهم حفاة، بملابسه المدنية، لأنه حضر على عجل من إجازته، بعضهم فى ثيابه الداخلية، أن ترى دبابات العدو سليمة تمامًا، بكامل ذخيرتها، هذا ليس له إلا معنى واحد، أن من بداخلها استسلم أو فر، المهم أنه آثر عدم دخول الحرب. فوق الأرض تتناثر الجثث، تقوم قواتنا بإخلاء الأرض منها، عشرات البطاقات الشخصية المكتوبة بالعبرية، واللافتات الصغيرة الصفراء، وأحذية غير مكتملة، قطع من الأسلحة الخفيفة المدمرة، شرائط الذخائر الخاصة بالرشاشات، زجاجات المياه الغازية، صناديق ذخيرة بأكملها، نقود إسرائيلية،

ليرات، ورقة ليرة، عليها صورة أينشتين وكتابة رفيعة بالعربية «بنك إسرائيل».

نخطو فوق هذا كله، ويتساقط الإسرائيليون أما أسرى، أو جرحى، أو قتلى، تاركين مخلفات جيش مهزوم، بينما يواصل رجالنا زحفهم إلى الشرق.

.. في هذا الجزء من القطاع الأوسط، ظهر السبت ٦ أكتوبر، عبرت المغارز الأمامية لقواتنا في هذا القطاع القناة في زمن ضرب كل المعدلات، بدأ صعود الساتر الترابي بأسلوب مذهل، في سرعة فائقة، المشهد الذي تجسد فوق ضفتي القناة يعيد خلق مصر، يجسد مصر، ولنا أن نتخيل آلاف الرجال يندفعون تحت وابل من النيران، عواصف من الشظايا الساخنة، تحت مظلة من الهلاك المحوم في السماء يعبرون القناة، هذا المانع المائي العريض يشعر باتساعه من يعبره، أما الساتر فيشبه الجبل القائم على ضفة القناة بانحدار يكاد يكون رأسيًا، في بعض المواضع يصل ارتفاعه إلى ٣٢ مترا.

اندفع الرجال يتسلقون في سرعة خيالية، كل منهم يساعد الآخر، أحد المقاتلين يحمل جهازًا لاسلكيًا، يتعثر به، ينظر أحد الضباط ليطمئن على عملية التسلق، يلمح تعثر المقاتل، يعود مسرعا.. يأخذ بيده، يعاونه على الصعود، في موقع آخر يحمل قائد

التشكيل جهاز اللاسلكى بنفسه، يقف فوق أعلى تبة فى مواجهة القنطرة غرب، يوجه ضرب المدفعية بنفسه، ضابط آخر من ضباط الصواريخ المضادة للدبابات، يتقدمهم زاعقًا، مشهد من المشاهد النادرة فى الحرب، اتبعونى ياسادة المعارك، اتبعونى يارجال (الصواريخ المضادة للدبابات) على جانبى القناة تتصاعد الأصوات المصرية الأصيلة، ينادى كل منهم مشجعًا الآخر (شد حيلك يا.....)، (اطلع يا... يا..)، وفوق هذا كله يغطى على جميع الأصوات هدير المقاتلين، اللّه أكبر، قالها جميع المقاتلين، من ناحية أخرى بدأت وحدات المهندسين فى شق الساتر الترابى فى عدة مواضع لأحداث فتحات فيه، وهذه عملية من الناحية النظرية بالغة الصعود، إن الساتر ضخم، ولإحداث فتحة واحدة خلاله كان لابد من إزالة كمية ردم تعادل ٢٨٠٠ م^{٢}، أى ما يوازى ردم عمارة قدرها ثمانية ادوار.

كان رجالنا يطبقون على العدو من كافة الاتجاهات، فى إحكام ودقة ومهارة، فى الوقت نفسه يتم فتح الثغرات فى حقول الألغام التى بثها العدو، والأسلاك الشائكة، إن هذه الأسلاك تشبه الغابة، أحراش كثيفة، وأدغال من الأسلاك الشائكة التى تعلو الساتر الترابى، وتحيط النقاط القوية، نتخللها الخوازيق الحديدية، موانع رءوس التنين، وخزانات النابالم المعدة لإشعال قناة السويس لحظة عبور قناة السويس لتحويلها إلى بحر من النيران.

فوق تبة عالية يتداعى إلى ذهن المقاتل حسن لحظة عبور القناة ورؤية الرجال، بناة الهرم وزحفهم، يرصون الأحجار المنحوتة من صخر الجبل فوق بعضها، أيضًا آلاف المعاول التى تشق الصحراء لتحفر قناة السويس، نفس هذه القناة التى اقتحمها الرجال ظهر السبت فى تمام الثانية.

تم عبور القوات المترجلة، المشاة الضباط والجنود، واستمرت عملية إقامة الكبارى الضخمة التى ستعبر فوقها الدبابات والأسلحة الثقيلة، كانت نظرية الدفاع الإسرائيلية مبنية على أساس التصدى للقوات المصرية الخفيفة التى ستعبر فى البداية، ومحاولة إجهاض هجومها قبل وصول الدبابات، وهكذا دفع العدو بسرعة بأعداد من دباباته لملاقاة مشاتنا لكنه فوجئ أن كل جندى مصرى عبارة عن دبابة متحركة، كل جندى يحمل سلاحًا مضادًا للدبابات، وبدا مشهد فريد فى حرب أكتوبر، جنود المشاة المصريون يجرون وراء الدبابات الإسرائيلية، لايكفى الواحد منهم باتخاذ موقع يختبئ فيه ليفاجئ الدبابة المعادية، إنما يسعى لمواجهتهما وتدميرها، وخلال المواجهة مع الدبابات، حدث ما يلى فى هذا القطاع، يوم السبت.

قول من دبابات العدو يتقدم فى اتجاه قواتنا، هدفه إحدى النقاط التى تعبر منها قواتنا، سرعة الدبابات كبيرة، أحد المقاتلين لايتردد، يلف جسده بالحزام الناسف، يتقدم إلى طريق القول،

يصيح، اللّه أكبر، اللّه أكبر، برتمى فوق الأرض ، يبدو أن سائق الدبابة الأولى المعادية لمحه، أطلق دفعة من الرشاش الخفيف، اتجه إليه ليدوسه، وعندما أصبحت الدبابة على بعد أشبار من المقاتل المصرى، قام، قابل الدبابة الفولاذية بجسده ، فجر الحزام الناسف، وتطايرت الدبابة إلى شظايا وانفجارات وحطام، بدأ الارتباك واضحًا على الدبابات الأخرى، انعكس الارتباك على شكل حركتها، فى هذه اللحظات كان الرجال قد اتخذوا مواقعهم المناسبة لضرب الدبابات، ثم تدميرها، فى الوقت نفسه، اندفع أكثر من مقاتل، ليصدوا بأجسادهم المزاغل التى كانت تتخلل دشم خط بارليف، ويطلق منها جنود العدو النيران على قواتنا المتقدمة.

أن أيا من هؤلاء الرجال الذين اتخذوا هذا الموقف النادر، ربما لم يكن يفكر فى صباح نفس اليوم أنه سيقدم عليه، ولكن لحظة المواجهة، عندما يصبح الخطر قائمًا أمام الهدف الذى يسعى إليه الرجال، هنا تتضافر عشرات العوامل، فيقدم الإنسان المصرى على التضحية بنفسه راضيًا، إيمانًا منه بأن الآخرين سيحققون الهدف، وهذا الهدف يذوب فى معنى أكبر وأعم واشمل، مصر الباقية أبدا، هذا الموقف لم يحدث إطلاقًا من أى جندى إسرائيلى، ولم أقرأ ولم أسمع عنه فى أى قتال خاضه جيش فى العالم، إنه موقف خاص جدا، بالإنسان المصرى..

مع المغارز الأمامية تقدمت أعلامنا، دفع مع هذه المغارز خمسة وعشرون علمًا مصريًا، وبين دخان الموت، وسحابات الخطر، وتناثر الشظايا، والدماء، تقدم الرجال إلى أعلى نقاط فى الأرض، اعتلوها، غرزوا الأعلام، خمسة وعشرون علمًا مصريًا رفرفت فى هذا القطاع وحده ولحظة خفق الأعلام اندلعت الأرض بالأصوات، اللّه أكبر، مناطق يخيل اليك أنها خالية من الرجال، إذا بها تنطق وتصرخ، اندلع لهيب من صدور المقاتلين، اللّه أكبر، اتحدت العناصر، التاريخ العريق، الرغبة فى الثأر، باختصار شديد، اندلعت مصر، تسابق الجنود، العبور، تسلق الساتر، اقتحام حقول الألغام، الأحاطة بالنقاط القوية..

وخلال المعارك الأولى كان حرص القيادة شديد على تحقيق النصر، لابد من الانتصار فى هذه المعارك اليت ستحدد مسار الحرب، بينما بدا العدو فى تحريك قواته المدرعة التى تقف فى العمق وعلى نطاق واسع، التحم المشاة بالدبابات، ولم تستطع دبابة معادية واحدة الاقتراب من القناة إلى مسافة لاتتجاوز ستة كيلو مترات.

لقد بدأ الرماد الذى ذرته إسرائيل على سمعة المقاتل المصرى يتطاير، انقشعت الغمامات، بينما استمر تدفق الطوفان البشرى عبر القناة، وفوق الضفة الشرقية كانت أوضاع القوات ممتازة أكثر مما قدرة لها. اندفع الرجال يحملون معدات ثقيلة يجرون وكأنهم

يحملون أخف الأحمال، امتزج الإنسان بالصراع الدموى، وإنكار الذات، بينما علم بلادنا يظلل عمرنا كله..

استمرت أعمال المهندسين لمد الجسور الثقيلة لعبور المدرعات، وقع اختيار القيادات على مواقع معينة يتم فيها إقامة المعابر، من ناحية أخرى بذل العدو جهودًا جبارة لاكتشاف هذه المواقع، ولأن قادتنا يعرفون العدو تمامًا، ودرسوا كافة أساليبه، فقد دبروا له عملية خداع ممتازة تعكس أحد أساليب قواتنا فى هزيمة العدو، لقد اختاروا موقعًا معينًا، بدءوا فى تمهيد الأرض المؤدية له، ودفعوا ببعض المعدات الهيكلية على الطريق، وركزوا عمليات الاستطلاع على هذه النقطة بالذات، بحيث أن العدو اقتنع فعلا أن هذا هو مكان العبور المحتمل وعند بدء المعركة دفعت قواتنا بالكبارى الحقيقية إلى أماكنها، وركز العدو كل جهوده لضرب هذا المعبر، وركز مدفعياته كلها، وجاءت أسراب من الطائرات تحاول قصف الكوبرى، وفى بعض المواقع الأخرى استمر رجالنا فى إقامة المعابر حيث ستعبر الدبابات، لم يوجه العدو جهده ناحية هذه الكبارى، إنما ركزها فوق هذا الكوبرى الوهمى، ويبتسم أحد القادة قائلا:

ـ لقد افتدى هذا الكوبرى كل المعابر الأخرى..

وهكذا نشأ مشهد جديد فى تاريخ القناة ، لقد وصلت الضفتان بعدة معابر متينة محمية بقوة ، واندفعت مدرعاتنا بأقصى سرعة

إلى الشرق لتلتحم بمدرعات العدو، وعندما بدا ليل الحرب ينزل، كان جنودنا يقتحمون النقاط القوية الواقعة فى مواجهتهم، كل شىء عكس الذعر والمفاجأة التى لحقت بالعدو، فى أقوى النقاط القوية كان البوتاجاز لازال مشتعلا وفوقه إناء فارغ لم يوضع به شىء، وثلاجة تعمل بالكيروسين مفتوحة الباب لم يستطع الجندى الإسرائيلى إغلاقها، وثمرات بطاطس قشر نصفها، ولم يتم تقشير النصف الآخر، وكان جنود العدو القتلى حفاة، لم يجدوا الوقت اللازم لارتداء ثيابهم.

داخل أرض المعركة استمر تقدم المشاة ، وتلاحمهم البطولى ضد الدبابات، وفوق بقعة من الأرض، رأى جنودنا دبابة معادية واقفة، طاقمها خارجها، بدا عليهم الذعر، كنتيجة للارتباك الذى وقع بين دبابات العدو اثر تلاحم المشاة بها وإلحاقهم أفدح الخسائر بهم قرر رجالنا أن يستولوا على الدبابة سليمة، قذفوا الدبابة بقنبلة يدوية أبادت الطاقم واستولوا على الدبابة الباتون الأمريكية سليمة، ومع مجىء الليل، دخول دباباتنا المعركة وقع فى قبضة قواتنا أول أسير إسرائيلى ينتمى إلى الاحتياطى الاستراتيجى للعدو الذى يحتفظ به فى العمق.

ooo

خلال الليل دفع العدو بلواء مدرع فى اتجاه قناة السويس، وهذا اللواء يعد من أكفأ الألوية المدرعة الإسرائيلية، ويتكون اللواء المدرع

الإسرائيلى من ١١٠ دبابة، مدعما بكتيبة مشاة ميكانيكية، وكتيبة مظلات، وسرية هاون ثقيل، ومدفعية معاونة وبالطبع هناك الطيران وعند وصول اللواء المدرع أرض المعركة حاول اتباع نفس الأسلوب الإسرائيلى الساذج، دفع سرية دبابات إلى اليسار للهجوم، بحيث لايوحى لحجم القوة..

فوجئ بمواقعنا الأمامية المخفاة جيدًا، تتعامل معه.. دمر له ٧ دبابات.

دفع سرية أخرى فى اتجاه الشمال الشرقى لقواتنا، تعاملت معها قواتنا ودمرتها فى هذا الوقت كانت عناصر استطلاع ترقب المنافذ والطرق وطبقا لعوامل معينة قدرت قواتنا أن اتجاه الهجوم الرئيسى سيكون فى المنتصف.

بسرعة، تم فتح مصيدة قاتلة بالأسلحة المضادة للدبابات، لدرجة أن كل دبابة خصص لها أسلحةمضادة أضعاف أضعافها.

تصاعد الغبار فى سيناء، كان العدو يتقدم بسرعة ٤٠ كيلو فى الساعة، وهذه سرعة عالية بالنسبة للدبابات، ولكن ما أن عبرت قوات العدو إلى الأمام حتى فوجئت بجحيم نيران، من الأمام، من الخلف، من كل اتجاه وخلف مؤخرة العدو قاد واحد من أبطال مصر العظام، المقاتل إبراهيم زيدان هجومًا ناجحًا ضد مؤخرة اللواء. كان

المقاتل الفذ إبراهيم أستاذًا فى القتال المتلاحم ضد الدبابات، واستشهد فى المعركة.

استغرقت عملية تدمير اللواء المعادى دقائق. وهنا يسجل التاريخ العسكرى نقطة فاصلة فى تاريخ الحروب، لأول مرة تقوم وحدات مشاة خالصة غير مدعمة بالمدرعات، مسلحة بالقواذف المضادة للدبابات بتدمير لواء مدرع بأكمله.

وفوق مساحة شاسعة من رمال سيناء تتناثر بقايا اللواء ١٩٠، أعداد كثيرة من الدبابات، الحديد متفحم أسود، أجزاء الدبابات منبعجة الأبراج طارت عن أجسامها، كان أيدى قوية خرافية لاتمت إلى عالم الإنسان قد فعلت هذا، الدروع قوية، ملفوفة، الجثث متفحمة، تغطيها الرمال، المدافع مصهورة ملتوية، توقفت كثيرًا أمام بعض الحطام وأنا أتعجب للطريقة الفنية والبراعة العظيمة التى أصابت هذه الأجسام الفولاذية، إن الأعداد الهائلة المتناثرة من الدبابات تذكرنا بقصة قرأناها فى الطفولة عن مقبرة الأفيال، لكن الأفيال لا تترك للرؤية غير أنيابها العاجية، لكن هنا كل شىء أمام العينين، الفولاذ والحديد وأشلاء المدافع بدت الأرض وكأنها مقبرة ضخمة للدبابات، مقبرة للعدوان.

* * *

اسمه عبدالعاطى من الشرقية، وحاصل على دبلوم المدارس الثانوية الزراعية، ويبلغ من العمر ثلاثة وعشرين عامًا، من مواليد

١٩٥٠، واحد من آلاف ينتمون إلى جيل يقدم أغلى التضحيات.من أجل مصر، جند فى القوات المسلحة منذ عام ١٩٧٠، وقبلها كان يعمل موظفًا كأى واحد من الموظفين الذين تزدحم بهم دوائر الحكومة، هل جال واحد عندما رأى عبدالعاطى يذهب إلى المدرسة الزراعية طالبًا، أو عندما رآه يمشى فى شوارع مينا القمح. أو يتسلم بعض الخطابات ويرد على البعض الآخر فى المصلحة، هل تصور أحد أنه سيدمر للعدو الإسرائيلى ثلاثًا وعشرين دبابة، وأنه سيحطم ثلاثة وعشرين مدرعة مع رجال موقعه، هذا ما قام به عبدالعاطى ورجاله، عبدالعاطى المرح، صاحب الوجه المصرى جدا، والأسنان ذات البروز الخفيف والفلجة الخفيفة، واللهجة السريعة، والحيوية المتدفقة، والرقة إذ يذكر ابنة عمه التى ينوى أن يتزوجها، عبدالعاطى ورجاله من علامات حرب أكتوبر من العلامات الإيجابية العظيمة فى المقاتل المصرى، ولكى نتتبع ما قام به يجب أن نبدأ من يوم السبت ٦ أكتوبر، منذ الساعة الثانية والقوات تتدفق عبر القناة، وفى أحد مواقع القطاع الأوسط يجىء الدور على تشكيل من قواتنا، إنهم مجموعة من حملة الصواريخ المضادة للدبابات، منذ لحظة العبور وحتى يوم السبت ٢٢ أكتوبر، يوم وقف إطلاق النار، هذه الأيام تعتبر بالنسبة لعبدالعاطى ورجاله يومًا واحدًا ممتدًا، بدا يوم ٦ أكتوبر وانتهى يوم ٢٢، وكل التفاصيل الزمنية بينما ملغاة، وهذا شعور وجدته لدى كثيرين من المقاتلين، لقد ألغيت الفواصل الزمنية

خلال أكتوبر بالنسبة لهم، عاشوا الحرب ليل، نهار، ويذكر أحد المقاتلين الآخرين، أنه قضى أيام الحرب بدون أن ينام، أو يتمدد، أو يخلع حذاءه، إن شمولية الاحداث، تعاقبها، ونشوة النصر جعلت الكل ينسون النوم والراحة، كان هناك تعويض آخر هذا ما شعر به عبدالعاطى ورجاله، أن هذه الأيام تعنى بالنسبة لهم عددًا كبير من الدبابات قاموا بتدميره فوق أرض سيناء.. عبدالعاطى يشعر بثقة لاحد لها فى نفسه، عندما التقيت به رأيت هذا على الفور، وقلت لنفسى، هذه ثقة طبيعية، فإن يدمر إنسان ما ثلاثًا، وعشرين دبابة فهذا أمر فوق الواقع، ويتهطى حدود العقل، وإمكانيات التخيل، إنه واقع خاص يصنعه المقاتل المصرى.

كان الرجال أيضا يشعرون بثقة شديدة لا حد لها فى أنفسهم وفى سلاحهم عندما عبرواإلى الشرق، إن نوعية سلاحهم، الصاروخى المضاد للدبابات، تقضى قبل استخدامها خبرة عريضة تكتسب عبر تدريب شاق جدا، فالسلاح معقد، واستعماله لابد أن يعتمد على الغريزة وليس التفكير، أى أن المقاتل يجب أن يستخدمه كما يمارس المشى والحديث، وهذا يتم عبر تدريب قاس وطويل أيضا فإن التوافق بين أفراد المجموعة لابد أن يكون تاما، كان هذا أبرز سمات تلك المجموعة، والتى تشعر بعد قضاء وقت قصير معها أنك بين أصدقاء حميمين خاصة العلاقة بينهم وبين الضابط قائد

المجموعات، عندما جاء المقاتل عبد الجابر، اندفع إليهم، واندفعوا إليه، تعانقوا، بدا كأخ أكبر أو أب، ورأيت فى وجهه صلابة الصعيد الأعلى، لقد علمهم، وقسا عليهم فى التدريبات، لكن فى أوقات الراحة صحبهم إلى الترفيه نظم لهم الرحلات إلى بعض المعالم المشهورة، اشترك معهم كلاعب كرة، أذكر حوارًا جرى بين المقاتل عبدالعاطى والمقاتل عبدالجابر وأحد كبار القادة، مباريات الكرة اشتركوا فيها معا قبل الحرب خلال وقت الفراغ، بدأ الحوار مرحًا، كأنهم مجموعة أصدقاء، لا فرق فى الرتب، ورأيت قمة التطور والتغيير الذى طرأ على العلاقة بين الضابط وجنوده، تأملت «عبدالجابر» أنه واحد من صانعى الرجال الأفذاذ، إنه ينظر إلى الرجال بحب ، ذكرنى بأستاذ كان يدرس لنا اللغة العربية فى المدرسة الابتدائية، وكان خلال الحصص يحدثنا دائمًا عن تلاميذه الذين أصبحوا رجالا، بعضهم ضباط، بعضهم موظفون، بعضهم محامون، يلتقون به فى الطريق، لايعرفهم، لكنهم يسلمون عليه، يقولون، أنت علمتنا كذا وكذا، تذكرت وجه المدرس خلال هذا الحديث، إحساسه بأنه خلق شيئًا، وتذكرته عندما التقيت به فى الطريق بعد أن صرت رجلا ونزلت إلى الحياة، لم يعرفنى ، لكنه أبدى اعتذارًا ، كنت أمامه جزءًا من معنى حياته، لما صنعه كنت امتدادًا خفيًا له رأيت هذا فى عينى عبدالجابر تجاه رجاله، ولكن المعنى هنا أعمق وأسمى، لأنه يتعلق بالصراع الدموى ضد العدو،

يقف عند الحد الفاصل بين الحياة والموت..

عبدالعاطى ورجاله على بعد ١٧ كيلو من قناة السويس، ثانى أيام الحرب، إنهم يتقدمون جميع القوات، إذ أنهم بطبيعة عملهم لابد أن يكونوا فى المقدمة يتصدون لمدرعات العدو، هذا يقتضى أيضا نوعية خاصة من الرجال، لابد أن تكون أعصابهم قوية جدا وهم يواجهون المدرعات ودوى الطلقات، نتناثر آلاف الشظايا،وتحت هذه الظروف يقوم المقاتلون بتشغيل هذه المقذوفات الدقيقة، والتى تستلزم دقة فائقة فى التوجيه، والإطلاق حتى تصيد الهدف.

ظهرت خمس دبابات معادية فى اتجاه الشرق من طراز ام ـ ٦٠، كان تجهيز القواذف معدًا، ويقول عبدالعاطى..

ـ رحت واكل أول دبابة.. وبعدين الثانية والثالثة..

حدث هذا فى سرعة فائقة، لم تمر ثوان حتى ظهرت ٨ دبابات معادية فى اتجاه الجنوب، الرجال يعملون معًا، اندمج كيانهم كله فى الموقف، إن الثانية الآن تمثل عاملا حاسمًا، إما أن ينتقل الإنسان إلى الظلال، أو يبقى فى الضوء، انطلقت المقذوفات لتدمر خمس دبابات، ثلاث.. انتهت دبابات العدو..

وهنا تقدم رجالنا لاحتلال تبة عالية، يمكنهم من خلالها التحكم فى جميع المواقع المحيطة بهم، وطبيعة الأرض فى سيناء، حيث دارت معاركهم ضد الدبابات غير مستوية، تعلو الكثبان، تهبط

الأرض، تبدو الصحراء وحشية مليئة بالأسرار، مزدحمة بالمفاجآت، بمجرد ارتقائهم التل، ظهرت دبابات ثلاث من طراز أم ـ ٦٠ أحدث الدبابات الأمريكية لدى العدو.

وجه عبدالعاطى مقذوفاته إليهم، علت أعمدة النيران. وبدا على فولاذ الدبابات الحيرة والهزيمة بدت أجساد الدبابات الضخمة وكأنها حيوانات معدنية خرافية فقدت توازنها، رأى عبدالعاطى ورجاله جنود العدو يتركون دباباتهم، ويتجهون بسرعة إلى مواقعهم، كانوا كثيرين، بمفردهم فى العراء بعد أن جردهم رجالنا من دروعهم الفولازية، وهنا تقدم إليهم رجال المشاة ليأسروهم بينما كان رجال عبدالعاطى يجهزون معداتهم استعدادا للقاء جديد..

فى الليل تقدموا للتمركز فوق كثيب عال يعد من أقوى الهيئات المحاكمة، أى المواقع المتحكمة فى المنطقة ، ومع أول ضوء ظهرت دبابات فى اتجاه الشرق، يقول عبدالعاطى ببساطة، وأنقل هنا نفس كلماته:

ـ كلت واحدة.. وزميلنا الثالث كل واحدة..

وخلف الدبابات الفردية، ظهرت عربة مجنزرة للعدو تحمل ٢٠ فردا. كانت مندفعة بسرعة جدا وهنا لأدع بطلنا يتحدث:

ـ ضربتها صاروخ، ولأن درعها أقل من درع الدبابة فى الصاروخ

خد راحته فيها قوى..

وقدامنا لقينا عامود نار عالى جدا، وهج النيران والحرارة ماغطاش على لون الدم.. اللى مات مات واللى أسرناه أسرناه..

وبين الرجال وقف المقاتل (عبدالجابر) مع أن موقعه فى الخطوط الخلفية. كان يصيح..

- برافو يا أبطال.. اللّه أكبر.. اللّه أكبر يا بطل.. اللّه أكبر.. وعندما أصيب اصابة صغيرة فى فخذه، رفض أن يخلى، أن يغادر الموقع، ربط الجرح، ومشى يتنقل بينهم، يعرج عرجًا خفيفًا..

فى اليوم الثالث، هجموا بغزارة..

من الشرق ظهرت عشر دبابات، كلها من طراز أم - ٦٠ مندفعة بأقصى سرعة أمام عبدالعاطى ٤ مقذوفات جاهزة، وهنا نلاحظ مدى دقة أعصابه. وعدم استسلامه للواقع، إن الحرب لم تكن فقط ضد دبابات العدو، إنما ضد الواقع أيضًا..

استقر كل مقذوف فى دبابة، دمرت ٤ دبابات، واشتعلت دبابتان أخريان كانت الدبابات كثيرة، وكان الجهد شاقًا. والدبابات تطلق داناتها بغزارة، ضد النقطة التى تمركز فوقها أبطالنا. وفوق معصم أحد الرجال مرت دانة دبابة، أحدثت به بعض الحروق البسيطة بتأثير اللهب، وهنا راح بطلنا يقوم بتجهيز المقذوفات بنفسه

وإطلاقها. طبعًا تم كل ما وصفناه بسرعة شديدة استغرقت وقتًا ربما أقل من الزمن اللازم لقراءة الوصف. دمر بطلنا دبابتين، وهنا استدارت بقية الدبابات، مولية الفرار، عكس الفولاذ رعب الإنسان، علت سحابات الغبار، وتذكرت هجمة للطيران المعادى، ست طائرات فانتوم، انطلقت صواريخنا، أسقطت خمس طائرات، بقيت طائرة واحدة، هبطت. علت، دارت ودارت دورات بلا معنى، عكس حديدها رعب الطيار، كان ينقصه شيء واحد، أن يفتح العجلات وينزل فوق الرمال، قال قائد الدفاع الجوى فى المنطقة إن عودته إلى قاعدته تماثل تمامًا إسقاطه.

إذ أن روحه التى اهتزت إذ رأى تدمير خمس من طائرات التشكيل الذى كان منضمًا إليه سوف تنتقل إلى زملائه، علت سحابات غبار. بينما ولت الدبابات الباتون الفرار. ولابد أن قائد هذه الدبابات أبلغ قيادته أنه يواجه فرقة بأكملها من المقاتلين المصريين. ولابد أنه نصحهم بتجنب الهجوم على هذه المنطقة وهكذا أثبت المقاتل المصرى أن البطولة الفردية، والعنصر الإنسانى مستمران فى الحرب الحديثة. هكذا أوقف عبدالعاطى ابن «منيا القمح» قلاع العدو الفولاذية ودمرها. إن النشوة التى كان يتحدث بها عبدالعاطى عن سير المعارك التى كانت تحركه كى يصحبنى إلى حيث الدبابات الإسرائيلية المدمرة، تعكس حالة الانتصار التى

سادت المقاتلين، حالة من الطهر والتطهير من رواسب تراكمت طوال ست سنوات كان لها تأثيراتها السلبية على الإنسان المصرى. ولكن بالقتال وبالدم تم تطهيرها، وهكذا بالعنف بالحرب، يحمى الإنسان المصرى حضارته، يبيد الرواسب، يتخطى المعوقات داخل روحه، لا أنسى أبداً وقفتنا على حافة قناة السويس، ننظر بأسى إلى الضفة الشرقية، والعلم الإسرائيلى، والمواقع المعادية، والفارق الرهيب بين وقفتنا فوق أرض سيناء، نتأمل جثث العدو، ودباباته المحترقة، ونخطو فوق أرض كان العدو موجوداً بها منذ ساعات، إن هذا يغير كل شىء فى حياة الإنسان بدءاً من آماله فى المستقبل حتى الطريقة التى يصافح بها الناس، وعلاقاته بهم. إن العنف، الحرب التحريرية هى المطهر، هى الطريق إلى حماية الحضارة، ومن هنا ضرورة استمرار روح القتال ليس استمرار الاشتباك فهذا يستغرق وقتا محدوداً والنتيجة فيه تحسم بسرعة، ولكن الزمن الممتد قبل وبعد الاشتباك هو ما يجب أن تسوده روح القتال، حتى تفاصيل الحياة اليومية، إن قاعدة الصواريخ تعمل ٢٤ ساعة؛ تظل عيون الرجال مفتوحة لا تغلق، ولايهدءون ، بينما يستغرق الاشتباك مع طائرات العدو ثوانى معدودات بعد خمسة أيام من انقطاع الدبابات الإسرائيلية عن مهاجمة هذا الاتجاه ظهرت دبابات إسرائيلية فتحت نيرانها فى اتجاه مواقع رجالنا، يبدو أن الاستطلاع المعادى

رصد مواقعهم، تخندقت هذه الدبابة فى خور، فى الوقت نفسه جاءت دبابتان حاولتا الالتفاف حول الموقع، وتصدى الرجال لهاتين الدبابتين، وبقيت هذه، الدبابة، سيطر على عبدالعاطى وزميله اهتمام شديد، أمسك بالنظارة، مسح بها التبة المواجهة، كان برج الدبابة فقط هو الظاهر، وماسورة المدفع، انتظر أن تتحرك، والمعروف أن أقوى جزء فى الدبابة هو البرج. ولكى يضرب مقذوف فى اتجاه العدو لابد ان يتأكد ١٠٠٪ من إيجابية الإصابة، وبقيت الدبابة ثابتة لاتتحرك، تضرب داناتها فى اتجاه الرجال، تحتمى بالموقعين التى استقرت بينهما، عند آخر ضوء كانت قد أطلقت ٣٠ طلقة، وعرف عبدالعاطى بعد الدانات التى أطلقتها أن ذخيرتها فرغت، وفعلا، طلع أحد أفراد طاقمها فوق البرج، بدأ يأخذ الذخيرة الفارغة، وبرغم أنها كانت تقف فى وضع من أصعب الأوضاع بالنسبة لضربها. أطلق عبدالعاطى عليها صاروخًا، كان الليل قد بدأ الخطو واحتاج الأمر إلي دقة متناهية من عبدالعاطى ليستقر الصاروخ فى جسد الدبابة تمامًا.. وانفجرت، وفوق رمال سيناء ترقد جثث الدبابات متفحمة، تلخص صورة من الصراع بين العقل المصرى والعقل الإسرائيلى، بين إرادة التحرير وقوة العدوان.

* * *

قال أحد المقاتلين، لحظة بدء إجراءات تسليم هذا الموقع

الإسرائيلى المنيع على الضفة الشرقية للقناة.

- بسقوط هذا الموقع يكون أقوى التحصينات الإسرائيلية قد سقطت فى أيدى قواتنا.. صمت قليلا، ثم قال.

- إنه لم ير موقعًا حصينًا كهذا من قبل.

وتتجه أنظار المقاتلين إلى لسان بور توفيق. حيث يبدو الموقع الإسرائيلى وكأنه جبل صغير فوق الأرض. كل مقاتل ينظر فى شراسة بالضبط كشراسة القتال الذى دار بين جنودناوالعدو المحتمى خلف هذه الجدران الصلبة. أسبوع طويل من القتال والخطر لا يوشك على نهايته. وفى الليل التقطت قواتنا إشارة لاسلكية خرجت من الموقع إلى قيادة العدو، يطلب فيها القائد أن يسلم موقعه عن طريق الصليب الأحمر.

ها هو مندوب الصليب الأحمر يعبر القناة فى قارب صغير، انفجارات مدافعنا تجىء من الشرق، لقد اتخذت قواتنا احتياطات عديدة، جنودنا يحاصرون الموقع من جميع الجهات، أو بتعبير أحد المقاتلين «إنهم يركبونه». فوق صحراء سيناء تبدو كتل غامقة متحركة. دباباتنا، وعربات تتحرك بسرعة. رجل الصليب الأحمر يصل إلى حافة الموقع. يرافقه بعض جنودنا، يظهر فردان من أفراد العدو، ثم عدد آخر من قمة الدشمة بعد أن رفعوا غطاء مستديرًا يشبه أغطية البالوعات، كأن الأرض تلفظهم بعد أن ضاقت بهم

يتحدثون قليلا مع ممثلى الصليب الأحمر. ينزلان القارب، الأرض لاتزال تلفظ أعدادًا أخرى، بمجرد خروجهم يتهالكون جالسين، ومن بعيد كنت أكاد أصغى إلى لهفتهم الوحشية إلى الضوء والشمس بعد أسبوع قضوه سجناء الموقع والظلام والذعر، كنت قد ابتعدت عن تجمع الصحفيين الذى وقف يرقب الحدث، آثرت الوقوف فوق نقطة عالية بين جنودنا من أفراد القوة التى تحاصر الموقع، هذه هى اللحظات الأخيرة بعدها يفك أسر الأرض الحبيبة منذ ست سنوات كل مقاتل يقف هنا ينظر إلى الموقع، يتذكر أحد زملائه الذين استشهدوا فى الهجوم عليه، هذه اللحظات التى يتم خلالها الآن عملية التسليم دفعت دماء غالية ثمنًا لها. إن الرجال يتجمعون غير عابئين بطيران العدو وخلال الدقائق التى استغرقها الحديث بين فردى العدو وقائد التشكيل المصرى ورجل الصليب الأحمر. قائد الموقع الإسرائيلى يرفع يده بالتحية للعلم المصرى أراه يقف فى وضع أنتباه أمامنا.

أحد المقاتلين من أبناء صعيد مصر، سنوات طويلة مضغ خلالها رغبته فى الثأر، اندفع يهاجم هذا الموقع، المقاومة عنيدة وقاسية. كانت التحصينات القوية تساعد العدو على التمركز خلفها، والبقاء أطول وقت ممكن، كان مدفع رشاش يطلق النيران بإصرار، وإمسك

مقاتلنا بقنبلة يدوية، صاح زاعقًا..

- أنا جاى لك..

* * *

أحد القادة كان يسرع إذ يجيئه نبأ استشهاد أحد جنوده، أو إصابة أحدهم بجرح. يحمله فوق كتفه بنفسه، يذهب به إلى نقطة الإسعاف. كان إذا علم أن جنديًا من جنوده جرح أو استشهد يضم قبضته، يضرب الحجر بحنق. ثم يبدأ فى تخطيط خطوط نحيلة كأصابعه فوق تراب الأرض أو رمالها. هذا القائد الشاب يقف الآن. إنه يرقب إجراءات التسليم. لقد انهمرت الدماء والتضحيات، كان يمكن للجنود اقتحام الموقع وإبادة من فيه، لكن مادام قائده طلب الاستسلام عن طريق الصليب الأحمر فلابد من هذه الإجراءات التي تتم الآن. بعد قليل يرتفع العلم المصرى فوق الموقع، الاستعدادات تتم لحمله إلى الضفة الأخرى، مقاتل يخرج بعلم ملفوف من الموقع، الأرض تميل ميلا خفيفًا، يرفعه إلى أعلى، على امتداد ذراعيه، يقول أحد الواقفين.

- بعد دقائق سيرفع العلم المصرى فوق النقطة القوية.. الآن وإلى الأبد..

يسكت قليلا، ويقول.

- إننى على استعداد للاشتباك معهم ليلا ونهارا.. ولو نفدت ذخيرتى أتمنى لو أن جسمى طلقة يوجهها زملائى من خلال مدفع.

يشير مقاتل آخر، إلى أفراد العدو الذين تجمعوا كالقطيع.

هؤلاء الجبناء لم يقابلنا واحد منهم بوجهه قط.. هذه النقطة القوية من أشد التحصينات تعقيداً، انظر كم من الأفراد كان يقيم بها أكثر من أربعين فرداً. كل هؤلاء استسلموا وأظهروا الجبن، هل تتصور حجم هذه النقطة إنها أشبه بمستعمرة صغيرة، لو أن ثلاثة منا فقط داخل نقطة كهذه لما استسلموا قط إلا فى حالة واحدة.. الموت.

سبعة وثلاثون أسيراً..

منكسو الرءوس، عيونهم زائغة، ممزقوا الثياب، ملامحهم غريبة، خليط متناقض مع الأرض المحيطة بهم، من الممكن أن أذهب إلى اليمن، حضرموت، السودان، المغرب، صحراء «الربع الخالى، إلى مسقط، إلى عمان، أينما ذهبت سأجد وجوها تبدو متلائمة مع واقعها المحيط بها، حيث الملامح عربية واللغة واحدة. والأصول الخفية لكن هؤلاء يبدون كمجموعة سائحين تمشى فى حى شعبى، منهم أفريقيا، خليط كالعصابة، قطيع، يتلاحقون القادم من أمريكا، بولنده، أوروبا، جنوب بجوار بعضهم. يطلبون الماء فى شراهة، والسجائر وتقدم إليهم السجائر والمياه، هنا تتجسد صورتان

متناقضتان، صورة دائما كانت تتكرر فى تاريخ الحضارة المصرية، حضارة عمرها سبعة آلاف سنة تدفع عن نفسها بالعنف خطر مجموعة شراذم، جنودنا يرون فيهم أشباه آدميين بعد أن خرجوا من وراء الجدران القوية والصلب والمدافع والدبابات، حاخامهم يحتضن كيس أحمر اللون عليه رسم نجمة داود، جنودنا يحملون خمسة جرحى، يدفعون بهم إلى عربات الإسعاف تنقلهم بسرعة إلى مستشفى السويس، أحد الجرحى يرتدى زيه المدنى تحت ردائه العسكرى، قميص أحمر اللون، وجورب برتقالى، صندل بلاستيك، ازياء الباقين مختلطة أيضًا. أحد الأسرى يقفز متلهفا ليلتقف سيجارة القيت إليه كل منهم يبالغ فى إظهار أيات الذلة والمسكنة.. فجأة تتحول الأنظار تسرى حركة بين المقاتلين.

* * *

قوة من المقاتلين، تمضى إلى الموقع، من فوق النقطة العالية يبدو طابورهم صاعدًا فى خط مائل، منذ أن لمح الرجال علمهم يخفق فى الهواء والتكبير والهتاف بحياة مصر يهدأ، الموقف فوق الواقع الموقع أصفر اللون والبحر غامق الزرقة والسماء تشهق صافية والانفجارات الطيران تسقطه الصواريخ والأسرى مستسلمون، مشهد لا يمكن أن يتكرر إلا فى حروب التحرير الوطنية، طابور الرجال مازال متجهًا إلى أعلى منطقة فى اللسان، طابور عرق

وجهد وتدريبات قاسية، ومعاناة وجراح، وعزم وإصرار، طابور يتقدمه قائد التشكيل برفع العلم خفاقًا، يسرى شعور ملتهب بين المقاتلين، آه.. لكم يود كل مقاتل لو عاش زميله أو صاحبه الذى استشهد دفاعا عن كل ما يمثله هذا العلم ليرى تلك اللحظة، الرجال يحفرون الأرض، يثبتون الصارى. تلتهب الصدور.. التأثر يدفع الدمع إلى العيون، الصيحات ترجف الأرض، الفراغ ومياه القناة والصخر تتصاعد إلى أعماق السماء والتاريخ..

الله أكبر..

الله أكبر..

تحيا جمهورية مصر العربية.

تحيا جمهورية مصر العربية.

تحيا جمهورية مصر العربية.

يرفع قائد التشكيل يده بالتحية العسكرية. الحناجر لا تهدأ، الله أكبر تحيا مصر، تبادلوا العناق. الوطن كله هنا فوق الموقع الذى حرر، دباباتنا تبدو من هنا مندفعة إلى الشرق.

لحظة رفع العلم تتجاوز كل شىء، تعلو فوق الحياة نفسها، تصل الحلم بالواقع تجسد الأمنيات التى كانت مستحيلة التحقيق تقصى الخوف وخطر الموت، وفداحة الثمن وتغسل الإنسان، الحناجر تردد،

الله أكبر، الله أكبر، من فوق رمال سيناء، من مواقع لا نرى من فيها، يعلو صوت جنودنا، الله أكبر، فتبدو الأرض وكأنها تزعق مهللة، والسماء تحنو وتحمى، تحيا مصر، تحيا مصر، تحيا مصر، وشيئًا فشيئًا تتوحد الأصوات فى صوت جماعى، رهيب.

بلادى.. بلادى.. بلادى.

لك حبى وفؤادى.

بينما يخفق العلم راسخًا، صلبًا..

وكانت الساعة، تمام الواحدة والنصف من ظهر اليوم السابع للحرب.

رسائل مقاتل من أعماق سيناء

أصدقائى الأعزاء..

هناك حقيقة موضوعية تتجسد هنا فوق أرض سيناء، فى كل لحظة بين هدير الانفجارات وتناثر الشظايا، حقيقة لا بد أن تظل ماثلة فى وعينا، كلما استمعنا إلى بيان عسكرى يزف إلينا بشرى جديدة للنصر، هذه الحقيقة أن كل شبر جديد تتقدمه قواتنا المسلحة إلى الشرق، كل خطوة جديدة تحرر جزاء من أرضنا المحتلة، كل دورة لجنزير، دبابة أو عربة مدرعة تقربنا من يوم النصر النهائى.

كل هذا لا يتم إلا بالدم.

يدفع ثمنه دما.

هنا فوق سيناء، يجود أغلى أبناء مصر بأثمن ما يملكون، بأعمارهم، هنا يضحى زهرة شباب مصر بأثمن ما لديهم، كل

معركة هنا تشهد حوادث ترقى إلى مستوى المعجزات، هنا ينفض الشعب آلامه جراحة. عبر مخاض وعر قاس وطويل.

أصدقائى الأعزاء.

أحار عمن أتحدث، ولكننى بدون تفكير أو محاولة مدبرة للاختيار، سأكتب لكم عن بعض من زملائى، من أصحابى، تعرفت إليهم تحت السلاح، ونمت بيننا علاقات فوق الزمان والمقاييس العادية التى تعرفونها، خلال الحرب يعرف الإنسان أخيه أكثر تتفتح السبل بين القلب الإنسانى والقلب، لا توجد عكارات، إنما يفسح المجال لأنقى ما فى البشر، المقاتل عبدالهاب يشدنى إليه بهدوء، وجهه بسيط، وعيناه دائمًا تتطلعان إلى الأمام، كأنه يحاول استيضاح تفاصيل شىء ما، عام ١٩٦٩ اشترك فى الإغارة على أحد المواقع الحصينة بخط بارليف رفع العلم المصرى لأول مرة فوقه بعد يونيو ١٩٦٧، وفى بداية هذا الأسبوع بعد أن استسلم نفس الموقع، تقدم المقاتل عبدالوهاب حاملا العلم بهدوء غرسه، ثبت الصارى، قام واقفًا. أدى التحية العسكرية بخشوع وجلال، رحت أرقب وجهه الهادئ، وعيناه الخضراوان، بعد أن هتف ثلاثًا، تحيا مصر، تفجر هدوؤه فى موجان متعاقبة وانحنى فوق الرمال، يتبلها، يهيلها فوق وجهه ولمحت دموعًا خافتة فى عينيه، فجأة استدار إلى الخلف حاملا سلاحه. عاد إلى هدوئه، هذه الهدوء ما هو إلا وجه

واحد، أما الوجه الثانى يبرز خلال فترات الاشتباك عندما نهاجم العدو، نلتحم بجنوده، بفولاذ مدرعاته، وجهه الهادئ يندفع فى المقدمة، يرفض نزول الإجازات الميدانية الصغيرة، لا يريد الغياب ثانية واحدة من ميدان القتال، اليوم خلال لحظات هدوء، قال عبدالوهاب بعد صمت طويل اعتدته منه إنه يشكر ظروفه التى أتاحت له الانضمام إلى القوات المسلحة الآن، فى هذه الظروف، أن يعايش سنوات المرارة والمعاناة، ثم يرى النصر، يشارك فيه، قال إنه لو خرج من الجيش بدون أن يحارب، أو بدأت هذه الحرب وهو بعيد عن ميدان القتال، لجم.. ثم عاد إلىَ صمته، ولم أجادله، تودت هذا منه وكأنه يلقى درسا واضحًا وعلىَّ أن أفهمه، أن أصغى إليه.. ولا أعلق.

* * *

أصدقائى الأعزاء.

أتحدث إليكم عن محمد، اذ يضهر فى مكان ينشر الضحكات، إن ملامحه مصرية تمامًا، فى روحه يتجسد أحد مكونات مصريتنا، المرح والسخرية، هذا العامل الذى، يخفف الصعاب، يجعل أقسى الظروف تبدو هينة، محمد يعرف سيناء كما يعرف راحة يده، لقد قضى شهورًا طويلة خلف خطوط العدو، وهنا أتوقف قليلا لأقول لكم حقيقة مهمة، كنا طوال السنوات الماضية نتواجد دائمًا فى

سيناء، خلف خطوط العدو، نرصد تحركاته، نرقب قواته، كانت مصر تمد الجزء الجريح منها - سيناء - بالرجال، وكأنه الدم ينقل إلى إنسان يواجه خطر الموت إذا توقف المدد، أن المقاتل محمد يذكر العديد من المأموريات التى اشترك فيها داحل سيناء، نفس اللهجة المرحة لا تفارقه عندما يتحدث، إنه يتكلم عن أحد الأسرى.

- كان طويلا وعريضًا ضخمًا كالمجنزرة.. أول ما مسكناه لقيناه يهودى اشكينازى، من أول لحظة كان مستموت خالص، ومافيهوش أى جرح ولا خدش، الواحد سأل نفسه، بقى هو ده جيش إسرائيل الذى لا يقهر.. لغاية دلوقتى ما قابلناش واحد منهم بوشه أبدا، طول ما هو فى دشمه، أو فى دبابة، ورا ساتر يحارب انما ساعة ما تواجهه.. انتهى.

لهذا لو رأيتم رجالنا يوم العبور، لحظة اندفاعهم للهجوم، كل منهم يحارب دفاعًا فى ذاته، ليرد ما لحقه من تهجم الأغبياء والأعداء، والمشككين، وبالتالى ليدفع هذا عن مصر، كل مقاتل حارب بدافع من عوامل، مختلفة، يبدأ بعضها من أشد العوامل خصوصية وينتهى بالعام جدا جدا، حارب كل منا دفاعًا عن العدوان الموجه إلى ذاته بالدرجة الأولى حتى لو أدى الأمر إلى التضحية بهذه الذات نفسها.

أصبح حلم يقظتى حقيقة.

رأيت بقايا جيش الدفاع الاسرائيلى، أطبقت عليه قواتنا من كل الجهات، رأيت دباباته محترقة والكثير منها سليم لم يمس، وجنوده أسرى، مواقعه مباحة لنا، أرى ولادتنا من جديد، وأؤكد لكم يا أصدقائى الأعزاء الذين تصغون إلى أخبار انتصاراتنا ويحدث داخلكم ما يحدث، إن ملامحنا ذاتها سوف تتغير، وإن إيقاع ألفاظنا سيدركه التغيير والتهديل.

* * *

أصدقائى الأعزاء.

علمت من هنا، من عمق سيناء حيث موقعى المتقدم الذى يبعد سبعة عشر كيلو مترًا عن قناة السويس فى اتجاه الشرق، إنكم اتصلتم بوالدتى وسألتموها عما اذا كانت تحتاج إلى شىء وقلتم لها، كل سنة وانت طيبة بمناسبة عيد الفطر، فقالت إنها ستهنئكم بنفسها عند احتفالنا جميعًا بعيد النصر الكبير ويعود كافة أبنائها المقاتلين، سواء أكنت أنا بينهم، ام كنت فى عداد الشهداء، وأنها قالت لكم، إنه لا شىء يعز على مصر، ولا يوجد أحد غال على مصر، علمت كذلك وإخوانى المقاتلون الذين اتصلوا بعائلاتهم أن الجيران قد مروا عليهم فى العيد، وفى الأيام التى سبقته، وسألوهم عا إذا كانوا يستطيعون تقديم شىء، وهكذا يبدو جوهر شعبنا فى لحظات الشدة، نحن هنا نشعر أننا ننتمى إلى عائلة كبيرة، الجيش

هو راعيها وحاميها يدفع عنها الخطر فى الوقت المناسب لتستمر الحياة.

أنا بخير، ونريد من هنا أن تطمئنوا علينا تمامًا، ليس بصفة شخصية، وإنما فى كل ما يتعلق بنا، ونريد نحن أن نطمئن عليكم، فنحن فى مواقع القتال الأمامية، يبدو كل شىء واضحا لا يحتاج إلى كشف، الحقيقة هنا حيث قمة الصراع ممع العدو جليه ناصعة، نراها عبر الدم المراق والخطر والشظايا والموت، نحن هنا فى القطاع الجنوبى من الجبهة مثلا نعيش حياتنا، حياة الحرب، يصلنا الطعام، والذخيرة، والمياه، هذه حقيقة، بينما تتساءلون أنتم، هل يصلهم التموين أم لا؟ نحن هنا ندرك تمامًا حجم العمليات العسكرية التى يقوم بها العدو فوق الضفة الغربية.

أمامنا عدو مهزوم. ورمال سيناء مثقلة بجثث أفراده، ومواقعه الحصينة مباحة لنا، لا شىء يستعصى على الفهم.

ونحن نعلم أنكم هدف أيضا لهذا العدو الحقير، يشن عليكم حربًا نفسية ضارية على المستوى العالمى، نعرف أن إذاعات خلفائه تسلط عليكم أبواقا بهدف زعزعة ثقتكم فى رجالكم، بهدف التقليل من النصر الذى حققناه، بهدف إثارة الخوف والرهبة منه، لهذا سأحاول الكتابة إليكم كلما سنحت الفرصة، أما الآن فاضطر إلى

إنهاء رسالتى الأولى، إذ أننى أوشك على الخروج فى مهمة خاصة، هذه الليلة.

* * *

أصدقائى الأعزاء، قبل بدء بدأ حربنا التحريرية يوم السبت ٦ أكتوبر، ولعلكم لا تعلمون أننى قضيت شهورا داخل سيناء، أسلك دروبًا، وأعتلى جبالها، وأتخفى فى أكثر من مكان، وأقتات الاعشاب الجبلية أحيانا، أو ما أجده حولى، وفى اللحظة المناسبة أضرب ضربتى مع زملائى، ثم نتفرق لنتجمع من جديد، لقد أصبحت سيناء محفوظة فى قلوبنا وعقولنا، نعرف دروبها كلها، ومتاهاتها، وبالأمس قبل قيامى بالمهمة التى سأحدثكم عنها بعد قليل التقيت بأحد زملائى المقاتلين، كان عائدا من أحد المواقع داخل سيناء، من أين؟ حاولوا أن تتصوروا. كان عائدًا من الكونتيلا بعد أن قام بمهمة خاصة ناجحة ضد العدو مع عدد من رفاق السلاح، جلست معه بعد أن قدم تقريره إلى القائد، إنه يتأهب للعودة إلى مكان آخر من سيناء، رحت أطيل النظر إلى وجهه، سألته عن بعض العلامات المعينة على الطريق الذى سلكته من قبل فى سيناء، أكشاك خشبية أقامتها العدو كمقر للترفيه، ضحك قائلا: إنه لم يرها أثناء عودته، ويبدو أن العدو فكها ونقلها إلى مكان آخر أو ألغى برامجه الترفيهية، حدثنى عن الكآبة البادية على وجوههم أثناء التحركات،

وطوابير الدبابات المصابة التى يحاولون فك بعض أجزائها للاستفادة منها، وطوال حديثه كنت أطيل النظر إليه، برغم أننى دخلت سيناء مرات، ولكنى كلما التقيت بأحد زملائى العائدين منها لتوهم أشعر أمامه برهبة خاصة، أذكر تصوركم عن رجالنا العاملين فى أعماق سيناء، تتخيلونهم نوعًا من السوبرمان، تظنون انهم فوق البشر، ابدا، إنهم رجال من قرى مصر وبلادها الطيبة، بعضهم موظفون وآخرون عمال، وفلاحون، يمكنكم أن تروهم فى الشوارع، فى أى وقت عندما ينزلون إلى الإجازات، وعندما يخطون داخل سيناء فانهم يفكرون فى قراهم،. وتتداعى إلى أذهانهم صور أحبائهم، وأطفالهم، وأيامهم الهادئة الحلوة، إنهم يحملون الوطن معهم أينما انتقلوا، إن رجالا مثلكم يدخلون يوميا إلى سيناء، يذهبون إلى قلب وجوده وقبل تنفيذى المهمة التى حدثتكم عنها فى رسالة أخرى، التقيت بأحد زملائى كان قد تلقى الأمر بالذهاب مع وحدته إلى نقطة تقع فى قلب الأرض المحتلة قبل عام ١٩٤٨ أى عليه أن يجتاز سيناء كلها، ثم يدخل إسرائيل وهذا المقاتل بالذات قام بالعديد من أمثال هذه العمليات لدرجة أننا نمزح معه، فنقول له أحيانا، أين تود أن تقضى إجازتك المقبلة، فيقول ضاحكا إنه يفكر فى قضاء بضعة أيام بالقرب من بيرسبع لينكد على اليهود عيشتهم ثم يعود.

جاءنى وبدا وجهه طيبًا حانيًا، لحيته نبتت قليلا، خلت ملامحه من الشراسة التى تبدو عليه عند القتال، إنه مزارع من دير مواس، يمتلك فدادين، وبعض نخلات تدر عليه محصولا سنويا متواضعا من البلح، إن زوجته تدير كافة أعماله وتشرف على تربية ابنهما الوحيد فوزى الذى يدرس فى المدرسة الإغدادية، لم نره، انما رأينا خطه المدرسى، خط تلميذ الإعدادية، لم نره، إنما رأينا خطه المدرسى، خط تلميذ فى الثانية الإعدادية، يقول على لسان والدته إنهما بخير ولا ينقصهما شىء، ويدعوان له بالسلامة ويطلبان من الله أن ينصر جنده، أعطانى ورقة صغيرة طلب منى أن أكتب إلى نجله العزيز الأستاذ فوزى، رسالة يطمئنه فيها، إنه كثيرًا ما يتحدث عن فوزى ابنه الذى ينوى أن يمشى معه حتى آخر مراحل التعليم بدا متعجلا فهو على وشك التحرك، قال إننى أعرف العنوان له أدعه يكمل، عانقته، ورحت أرقبه عندما اقتحم الظلام والمجهول ماضيا إلى أعماق سيناء، أب مصرى حنون، ما أعمق لحظات الوداع بين المقاتلين، وهو ماض إلى مهمة، أنا ماض إلى مهمة، والعدو واحد هل نلتقى ثانية؟ اذن ابن ومتى.. وما أحر اللقاء عندئذ وأروعه.

* * *

أصدقائى الأعزاء.

لا مجال للأحزان هنا، فإذا استسلم القلب زمنًا لطنينها ربما أصبحنا ضحية لها، ولكننى الآن فى هذه الدقائق التى أختلسها للكتابة إليكم سأحدثكم عن أحد زملائى بمشاعر عديدة، منها الإعجاب والألم والانبهار.

اليوم أتحدث إليكم عن المقاتل إبراهيم.. برغم أن أوان الحديث عنه لم يحن بعد، ولكننى أذرف دمعة على الورق، إبراهيم مقاتل عايشنا طويلا، عندما رأيناه أول مرة بدا لنا صارما، قاسى الوجه، كأنه خلق للحرب، والقتال، ولكننا فى لحظات معينة رصدنا فى حنايا عينيه عذوبة ورقة، وعندما أصاب أحدنا مرض اضطره إلى دخول المستشفى، وأثناء توجهنا لزيارته، يوما فوجئنا بإبراهيم يقف أمام باب الحجرة زميلنا يسأل الطبيب بدقة واهتمام، ويوصى زميلنا خيرًا، اكتشفت فيه الإنسان صاحب الأعماق التي لا حد لها، وتذكرررت أنني مررت في إحدي مأمورياتي القتالية في سيناء بواد مليء بصخور جهمة المنظر، تبدو من بعيد قاسية، وعرة، ولكن عند اقترابي منها اكتشفت شقوقا تتخللها نباتات فيها أرق أنواع الورود وأذكارها رائحة.

فيما بعد وحد بيننا وبينه الخطر، عبرنا معه القناة خلال حرب الاستنزاف عشرات المرات، وهاجمنا العدو في أعماق سيناء، وأذكر

الآن الليل، ورائحة البارود، وذعر العدو، وجسارة ابراهيم تدفعنا وراءه، دائما يتقدمنا، رأيت فيه راهب خرب متصوف عسكرية، أستاذ قتال، والليلة قبل الماضية خرجنا معه، كعادتنا نتحدي الموت والخطر والعدوان أعددنا كمينا متقنا للعدو وفي الظلام رصدنا عددا من دبابات العدو، وعند اللحظة المناسبة فتحنا نيران مدافعنا اشتعلت النيران في الأجسام الفولاذية الضخمة، اندفعنا إلى الأمام نطارد أفراد العدو الذين قفزوا من بعض العربات المدرعة المصاحبة للدبابات، والتحما بالسلاح الأبيض، وأفراد العدو يخافون تماما من القتال الليلي المتلاحم، علت الصرخات، ولمعت السناكي في الظلام، وكان الجو كلع غرقا في الغموض والقتال العنيف بينما النيران تلتهم دبابات العدو، فروا من أمامنا، سقط معظمهم قتلى، صاح زملائي.. (إبراهيم).

كان متمددا فوق الأرض، وجهه يضيء سواد الليل، في قسماته هدوء عجيب، لانت كل ملامحه، لم أعد أشعر يه من قبل كما أحسست في هذه اللحظات الليلية التى تلت القتال، نظرنا إلي بعضنا في الظلام، تفاهمنا في صمت، ملنا عليه، حملناه معنا، عدنا به، لقد احتوى مصر داخله طوال عمره، والآن يجيء الوقت الذي تحتويه أرض مصر، إذا ما أتيح للشاعر الشعبي أن يحكي عن إبراهيم. ان ينظم الملاحم في أبطال مصر الذين ضحوا من أجلها

خلال حرب التحرير فسوف تسمعون عن أبطال جدد أمثال أبوزيد الهلالى وعنترة، والظاهر بيبرس وسيف بن ذي يزن، وما جرجس.

ويما.. سأحكي لكم عنهم أكثر.

* * *

أصدقائي الأعزاء..

مرت بين اليوم موجة انفعال رقيق وصلني خطاب من طفلة في التاسعة من عمرها، تدرس بإحدى مدارس محافظة الشرقية، تقول بكلمات بسيطة جدًا (كل سنة وانت طيب.. العيد الكبير يوم رجوعك يا بطل.. ربنا يجيبك لنا بالسلامة).

وصل زملائى عدد آخر من الخطابات تأثرنا كلنا أصغينا إلى نبض مصر. وجوهر شعبنا يبدو كأقوى ما يكون عند الشدائد.

* * *

أصدقائى:

.. صباح اليوم تمركزنا فى إحدى القرى القريبة من قناة السويس بالضفة الغربية، رصد استطلاعنا مجموعة من دبابات العدو، وصلنا إلى القرية وفى الليل سنخرج لاصطيادهم كما تصطاد الثعالب، والجرذان، بيوت القرية أخليت من المدنيين، ذهبوا

إلى قرية قريبة، هنا فى القطاع الريفى من الجبهة يمارس الناس حياتهم بشكل عادى جدا، أن ترى فلاحا يحرث غيطا أثناء غارة جوية، أو فلاحة تغسل ثيابا، أو طفلة تحمل طعامًا فوق رأسها تمضى به إلى والدها وفى لحظات الهدوء النسبى حيث تبتعد أصوات الانفجارات والضجيج الذى تحدثه الطائرات، يخيل إليك أنك فى منطقة من مناطق الريف المصرى الهادئ جدا الذى يسوده سلام أبدى. كل عود نبات ينمو هنا فيه تحد للموت وللقهر وللعدوان، كل فلاح يقيم هنا حركته وأسلوبه عمله قهر لأعداء الحياة.

صباح اليوم فوجئنا بفلاح اسمه إبراهيم أبو العطا، نعرفه كلنا، من أهالى القرية، كان يحمل طبقًا من الفخار، قال السلام عليكم يا أبطال مصر، رددنا السلارم، قلنا له ماذا جاء بك يا إبراهيم، أنت تسعى دائمًا إلى الخطر، لوح بيده مبتسمًا وقال: إن الأعمار بيد الله، أشار إلى أحد أبراج الحمام، قال إنه جاء يحمل أكلا ليطعم الحمام الذى بقى فى القرية بعد انتقالهم.

كان وجهه هادئًا، لا يزعجه شىء وكان السلام فى عينيه، رحت أرقبه وهو يطعم أفراخ الحمام الصغيرة، بينما أسلحتنا مشروعة، وبعد لحظات قصار قد نلتقى بالعدو.

* * *

أصدقائى الأعزاء.

رأيت فى هذا المشهد مصر.. مجدوا معى مصر.

أحبائى..

سأنقطع زمنا عن الكتابة إليكم، إننى أتأهب للقيام بمهمة قتالية ستستغرق وقتًا وزمنًا، سأحدثكم عنها فيما بعد، عندما تعود أيامنا إلى إيقاعها العادى.. أما الآن، وحتى أكتب لكم مرة أخرى، وحتى نلتقى، ادعوا لنا بالنصرة..

واذكرونا.

الفهرس

منافذ بيع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

مكتبة المعرض الدائم

١١٩٤ كورنيش النيل - رملة بولاق

مبنى الهيئة المصرية العامة للكتاب

القاهرة

ت : ٢٥٧٧٥٠٠٠ - ٢٥٧٧٥٢٢٨ داخلى ١٩٤ - ٢٥٧٧٥١٠٩

مكتبة مركز الكتاب الدولى

٣٠ ش ٢٦ يوليو - القاهرة

ت : ٢٥٧٨٧٥٤٨

مكتبة ٢٦ يوليو

١٩ ش ٢٦ يوليو - القاهرة

ت : ٢٥٧٨٨٤٣١

مكتبة شريف

٣٦ ش شريف - القاهرة

ت : ٢٣٩٣٩٦١٢

مكتبة عرابى

٥ ميدان عرابى - التوفيقية - القاهرة

ت : ٢٥٧٤٠٠٧٥

مكتبة الحسين

مدخل ٢ الباب الأخضر - الحسين - القاهرة

ت : ٢٥٩١٣٤٤٧

مكتبة المبتديان

١٣ش المبتديان - السيدة زينب

أمام دار الهلال - القاهرة

مكتبة ١٥ مايو

مدينة ١٥ مايو - حلوان خلف مبنى الجهاز

مكتبة الجيزة

١ ش مراد - ميدان الجيزة - الجيزة

ت : ٣٥٧٢١٣١١

مكتبة جامعة القاهرة

خلف كلية الإعلام - بالحرم الجامعى

بالجامعة - الجيزة

مكتبة رادوبيس

ش الهرم - محطة المساحة - الجيزة

مبنى سينما رادوبيس

مكتبة أكاديمية الفنون

ش جمال الدين الأفغانى من شارع

محطة المساحة - الهرم

مبنى أكاديمية الفنون - الجيزة

مكتبة الإسكندرية

٤٩ ش سعد زغلول - الإسكندرية

ت : ٠٣/٤٨٦٢٩٢٥

مكتبة الإسماعيلية

التمليك - المرحلة الخامسة - عمارة ٦

مدخل (أ) - الإسماعيلية

ت : ٠٦٤/٣٢١٤٠٧٨

مكتبة جامعة قناة السويس

مبنى الملحق الإدارى - بكلية الزراعة -

الجامعة الجديدة - الإسماعيلية

مكتبة بورفؤاد

بجوار مدخل الجامعة

ناصية ش ١١، ١٤ - بورسعيد

مكتبة أسوان

السوق السياحى - أسوان

ت : ٠٩٧/٢٣٠٢٩٣٠

مكتبة أسيوط

٦٠ ش الجمهورية - أسيوط

ت : ٠٨٨/٢٣٢٢٠٣٢

مكتبة المنيا

١٦ ش بن خصيب - المنيا

ت : ٠٨٦/٢٣٦٤٤٥٤

مكتبة المنيا (فرع الجامعة)

مبنى كلية الآداب -جامعة المنيا - المنيا

مكتبة طنطا

ميدان الساعة - عمارة سينما أمير - طنطا

ت : ٠٤٠/٣٣٣٢٥٩٤

مكتبة المحلة الكبرى

ميدان محطة السكة الحديد

عمارة الضرائب سابقًا - المحلة

مكتبة دمنهور

ش عبدالسلام الشاذلى - دمنهور

مكتب بريد المجمع الحكومى - توزيع

دمنهور الجديدة

مكتبة المنصورة

٥ ش السكة الجديدة - المنصورة

ت : ٠٥٠/٢٢٤٦٧١٩

مكتبة منوف

مبنى كلية الهندسة الإلكترونية

جامعة منوف

توكيل الهيئة بمحافظة الشرقية

مكتبة طلعت سلامة للصحافة والإعلام

ميدان التحرير - الزقازيق

ت : ٠٥٥٢٣٦٢٧١٠ - ٠١٠٦٥٣٣٧٣٣٢

مكتبات ووكلاء

البيع بالدول العربية

لبنان

١ - مكتبة الهيئة المصرية العامة للكتاب
شارع صيدنايا المصيطبة - بناية الدوحة - بيروت - ت: ٩٦١/١/٧٠٢١٣٣
ص. ب: ٩١١٣ - ١١ بيروت - لبنان

٢ - مكتبة الهيئة المصرية العامة للكتاب
بيروت - الفرع الجديد - شارع الصيداني - الحمراء - راس بيروت - بناية سنتر مارينا
ص. ب: ١١٣/٥٧٥٢
فاكس: ٠٠٩٦١/١/٦٥٩١٥٠

سوريا

دار المدى للثقافة والنشر والتوزيع - سوريا - دمشق - شارع كرجيه حداد - المتفرع من شارع ٢٩ أيار - ص. ب: ٧٣٦٦ - الجمهورية العربية السورية

تونس

المكتبة الحديثة. ٤ شارع الطاهر صفر - ٤٠٠٠ سوسة - الجمهورية التونسية.

المملكة العربية السعودية

١ - مؤسسة العبيكان - الرياض (ص. ب: ٦٢٨٠٧) رمز ١١٥٩٥ - تقاطع طريق الملك فهد مع طريق العروبة - هاتف: ٤٦٥٤٤٢٤ - ٤١٦٠٠١٨.

٢ - شركة كنوز المعرفة للمطبوعات والأدوات الكتابية - جدة - الشرفية - شارع الستين - ص. ب: ٣٠٧٤٦ جدة: ٢١٤٨٧ - ت: المكتب: ٦٥٧٠٧٢٢ - ٦٥١٠٤٢١ - ٦٥١٤٢٢٢ - ٦٥٧٠٦٢٨.

٣ - مكتبة الرشد للنشر والتوزيع - الرياض - المملكة العربية السعودية - ص. ب: ١٧٥٢٢ الرياض: ١١٤٩٤ - ت: ٤٥٩٣٤٥١.

٤ - مؤسسة عبد الرحمن السديري الخيرية - الجوف - المملكة العربية السعودية - دار الجوف للعلوم ص. ب: ٤٥٨ الجوف - هاتف: ٠٠٩٦٦٤٦٢٤٣٩٦٠ فاكس: ٠٠٩٦٦٤٦٢٤٧٧٨٠

الأردن - عمان

١ - دار الشروق للنشر والتوزيع
ت: ٤٦١٨١٩٠ - ٤٦١٨١٩١
فاكس: ٠٠٩٦٢٦٤٦١٠٠٦٥

٢ - دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع
عمان - وسط البلد - شارع الملك حسين
ت: ٩٦٢٦٤٦٢٦٦٢٦ +
تلفاكس: ٩٦٢٦٤٦١٤١٨٥ +
ص. ب: ٥٢٠٦٤٦ - عمان: ١١١٥٢ الأردن.



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب